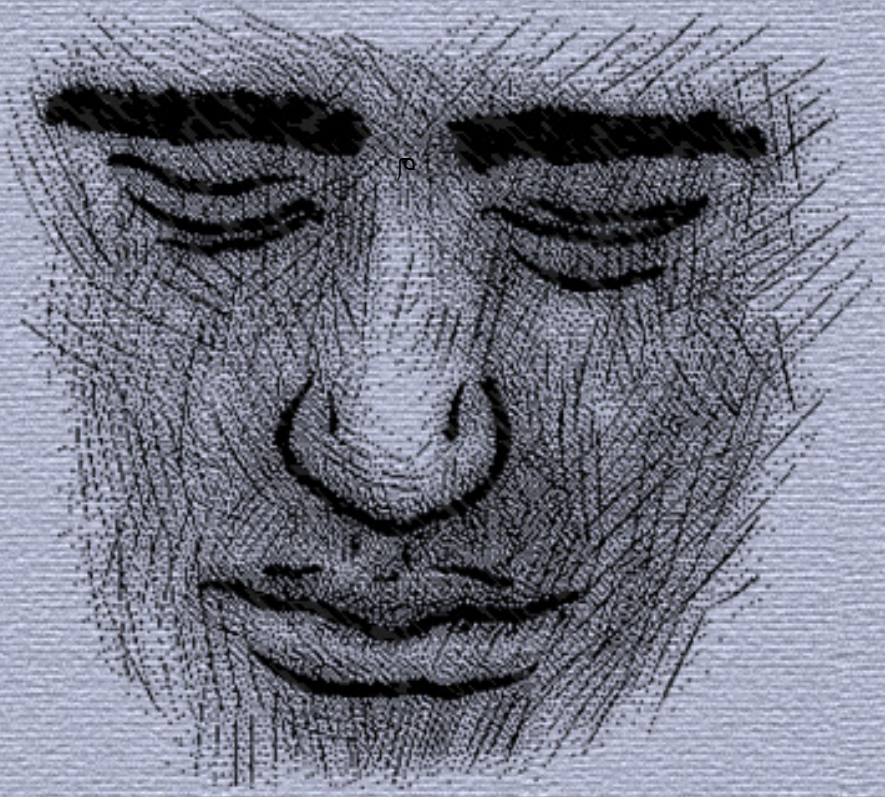

الوساوس !

محمد أبو الفتوح غنيم

الطبعة الأولى - يناير 2012

الوساوس !

الوساوس !

محمد أبو الفتوح غنيم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى – يناير ٢٠١٢ "رقمية"

تصميم الغلاف:

محمد أبو الفتوح غنيم

e-mail: m.abulfotoh@gmail.com

الوساوس !

بقلم

محمد أبو الفتوح غنيم

الإهداء

إلى نفسي. . . وشيطاني. . . وإليها .

جاء في القرآن الكريم. . . .

﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ .

وجاء في الأثر. . . .

"الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا " .

وقالت العرب. . . .

"خُذِ الحِكمَةَ مِن أَفواهِ المجانين" .

وقُلتُ. . .

"ما الحُكمُ في القائل بَقولِهِ . . ولا في القول بِقائلِهِ" .

وَهـم

أَرى النَّـــاسَ في الـــدُّنيا عَليًّـــا وَســـافِلا
وَلَســـتُ أَرى مِثلـــي تَـــدَنّى إِلى العُـــلا
فَـــإِن حِـــدتُ في غَـــيٍّ تَقَلَّـــدتُ بابَـــهُ
وَإِن جُـــدتُ في عَقـــلٍ فَـــلا ثَمَّ أَعقَـــلا

الوَساوِس!

وساوس النَّفْسِ أمرٌ لا نملك إيقافه ولا تحجيمه ولا نعلم حقيقة ما الذي يمكن أن تصل بنا إليه، وهذه الوساوس لابد لها من سبب أو نقطة تنطلق منها.

والشعور هو عماد تلك الوساوس مهما تعددت أسبابها الذاتية أو الخارجية، وهي متعلقة بكل ما قد يُولِّدُ فينا شعورا ما، فهي متعلقة بكل أمرٍ من أمور حياتنا.

لذا لا تتوقع أن تجدها منظمة أو متخصصة أو ذات طبيعة موحدة أو حتى ذات قضية مهمة –في نظرك–، ولا أن ترتبط بمكان أو زمان، ولا تتوقع منها نتيجة معينة واضحة سواء كانت نافعة أو ضارة.

وهي تعبر أكثر ما تعبر عن حالة معينة ووضع مميز حتى لَيَصعُبُ أن تتشابه وساوسك في موقفين متشابهين لأن هذه الوساوس يُغذّيها النُّضجُ العقلي والتجربة الحياتية فهي أشبهُ بالبصمة على المستوى الشخصي والعام.

ستجدُ هنا وساوس من خاطرة وشعر ومقال وفكرة وسؤال واعتراض، يجمعها تصنيف لا هو علميٌ ولا أدبي، بل تصنيف نفسيٌ فلسفيٌ منفرد، ويوحدها أنها وساوس عبثت برأس شخص واحد.

ومهما ترنَّحت هذه الوساوس بين الحق والباطل فإنها ستظل تجربة لا يمكن أن يعود صاحبها إلى حاله قبلها، فهي نهاية ومبدأ في ذات الوقت، وقد تكون أَفضَت إليها

وسوسة وقد تفضي هي إلى وسوسة أخرى، لذا فإن مشاركتنا وساوسنا قد توفر علينا وقت وطاقة عقلية بحيث نتناول السلم من الدرجة التي بناها أو هندسها لنا غيرنا، وقد نكمل بناء تلك الدرجة لكننا قد نأبى –رغم ذلك– أن نصعدها، أو نَنقُضُها ثم نبني درجتنا على أنقاضها.

وقد تشعل وسوسة أحدهم في عقلك فتيل الفكر سواء بما يؤيدها ويزيد عليها أو بما يعارضها ويصوب منها، لذا كانت وساوسنا تكافلية تكاملية، لا يمكن أن تنفصل عن بعضها بحال من الأحوال إلا إذا كانت لنا عوالم خاصة لا نفيد غيرنا فيها ولا نستفيد منهم ومحال لهذا أن يكون، ولهذا طُرِحَت هذه الوساس!.

بقي أن أنوه إلى أن كل ما ورد في هذه الوساوس هو نتاج تَقافُزُ مُهرِ الفِكرِ في عقلي ولما يبلغ مبلغ الجواد، وقد عنونت أكثرها وتركت بعض المقطوعات الشعرية بغير عنوان ربما لأنها لم تبلغ مقام القصيد، أو لأنني لم أستسغ عنونتها.

لكنَّ كل ما تجدونه هنا من تخاريف هي وليدة عقلي إلا ما أشير إليه أنه مقتبس ونسب لقائله أو إلى مجهول أو تجدونه قد خُطَّ برسم مائل تمييزا له عن غيره.

يـــــــــــــــا رَبُّ إِنّي بـــــــــــــــــــائِسٌ
أَو يـــــــــــائِسٌ يَرجـــــــــوا النَّجـــــــــاه
لَمَّـــــــــــا ظَنَنـــــــــــتُ الفَضـــــــــلَ لي
أَو أَنَّ في عَقلـــــــــــــــــي هُـــــــــــــــداه
كـــــــانَ القَضـــــــــاءُ بِـــــــأَن يَضيـــــــــ
ـــــــــعَ وَأَن يُـــــــــدَوَّخَ في مَـــــــــــداه
رُحمـــــــــــــــــــاكَ إِنّي عـــــــــــــــــاجِزٌ
وَالـــــــــــدّاءُ آيـــــــــــسَ مِـــــــــن دَواه

العُزلَةْ

"العزلة مرحلة أساسية في حياة الإنسان لا بد أن يخوضها ليحقق أعلى درجات الحكمة والمصير" **– المؤلف.**

ليست اكتئابا تلك العزلة التي أمارسها من حين إلى حين، وليست عجزا عن مسايرة المجتمع، وإن كان قد يشوبها أحيانا قدر ضئيل من هذا أو ذاك، ولكنها حتما ليست كذلك في مجملها. هي شيء يصعب تفسيره منطقيا أو فلسفيا بقدر ما هي منتزعة من قلب الفلسفة والمنطق وبقدر ما هي ضرورية لهذه الحياة، ولكن أقرب ما يمكنني قوله في تبريرها بحيث أقف موقفا وسطا بين ما قد يجعلك تشنع عليها أو تضفي عليها قدسية هو أن أقول أنها مزيج من احتقار وتقدير للمجتمع أو قل للدنيا في آن واحد.

ولعلك تسألني كيف يجتمع النقيضين؟!، والحقيقة أن هذا الاحتقار منبعه دناءة الدنيا ولست أقول هذا زعما بل تأمل بصدق ذلك المصدر المعجمي الذي اشتق منه اسمها، أضف إلى ذلك سولكيات البشر –ونحن منهم– وممارساتهم المخزية فيها وانغماسهم في شهواتهم ولذاتهم وقصرهم الحياة على تحقيقها فقط، والتي نقف أحيانا متحيرين أمامها، وكثيرا ما نهرب مما نواجه لا ضعفا منا ولا عجزا عن قلب السحر على الساحر أو الإتيان بمثله، بل لأننا ليس في امكاننا –أخلاقيا– أن نجاري هؤلاء في خزيهم، وبينما يمر الوقت وننظر للأحداث نظرة نفسية لا واقعية نكتشف مدى عجزنا إذ لم نفرق بين الحكمة والضعف أو القدرة والظلم، فنهرع هاربين من ضعفنا لا هروب فشل أو يأس بل

طلبا للانفراد بأنفسنا بعض الوقت لمراجعة حساباتنا وللتأمل والتفكر آملين أن نتوصل إلى الفرق بين الحكمة والضعف وبين القدرة والظلم.

أما ذلك التقدير فمنبعه عظمة وضرورة بل وحتمية ما يجيء بعد هذه الدنيا كما أنه يشترك مع هذا بعض ما يجيء فيها، وهذا التقدير هو الذي يدفعنا إلى اعتزالها بعض الوقت سعيا منا إلى إدراك أفضل الوسائل والطرق للتعايش مع ما فيها لتحقيق ذلك الهدف الأكبر، ونكون خلال ذلك باحثين عن أفضل السبل التي يمكننا بها مسايرة هذه الدنيا دون أن تصيبنا عدوى الدناءة، ومتمنين أن نكتشف سر الوجود وطبيعة العلاقات البشرية بل والعلاقة بين الإنسان وكل ما يحيط به من بشر وحيوان بل وحتى جماد، وكيف تتناغم هذه المكونات الدنيوية جميعا وتسير معا لتحقق الأفضل للجميع، هذا الأفضل الذي ليس بالضرورة ما نظنه نحن أفضل.

ولا غرو أن العزلة جزء أصيل من الممارسة الحياتية بل والفلسفية للإنسان بما تضفيه عليه من قدرة فائقة على التأمل والتحليل والاستنتاج نتيجة الصفاء الذهني والذي يكون مصدره الرئيس انتفاء الشواغل والعوالق الدنيوية التي تشتت الذهن وتنتزع من الشعور، ففي العزلة نجد الإنسان الكامل بحق، فلا شيء يشتت ذهنه أو يشغل عقله لا مسؤليات أو متطلبات أو احتياجات غير أقل ما يبقيه حيا ولا ممارسات عاطفية قد تشغله أو تعكر صفو عزلته، ولست أعني بهذا أن العزلة تنزع من الإنسان عاطفته أو أن عليه نزعها حين يكون في عزلته، بل إن أفضل ما قيل عن العاطفة وأفضل من توصلوا لفهمها –وهم الرهبان والفلاسفة– كانوا في عزلتهم حين فعلوا ذلك، لأن العاطفة بلا

شك تطغى على شيء من العقل بينما في العزلة يتحقق العقل الكامل الذي يحتوى العاطفة ويهذبها، ولست في معرض المفاضلة بين العقل والعاطفة ولا في معرض إثبات أيهما أقدر وأكثر ضرورة، فلولا العقل لما كان ثمة فرق بيننا وبين الحيوانات وكذا لولا العاطفة، فهما شقيقان، تماما كما النساء شقائق الرجال، لا يمكننا حقيقة المفاضلة بينهما إلا حسب مواقف بعينها لا حسب الوجود والكينونة.

قد تستغرب من دفاعي عن العزلة والتي يحسبها البعض مظهرا سلبيا من مظاهر الحياة، ولعلك ترميني ظلما بأنني أسعى لتبرير خطأ أقع فيه، ولن أدعوك للعزلة محتجا عليك بالقول السائد "كيف تحكم ما لم تجرب"، والذي يحترفه دعاة السوء في كل وقت، وإن كان احترافهم له لا يحط من سموه، بل إنني سأستخرج لك من خزائن عقلك ما غفلت عنه حيال هذا الأمر ثم سأتركك تزن ما أخرجته لك وأدع لك الحكم ففي النهاية لا يهمني ما ستتوصل إليه ولا يهمني إن كنت ستمارس العزلة أم لا، فكل ما يهمني هو أن أمنحك ما لدي... لأن هذا أكبر ما تعلمته من العزلة.

لعلك تعلم أو ينبغي عليك أن تعلم أن الفلاسفة على مر العصور كانت العزلة هي زادهم الثاني بعد المعرفة للوصول إلى استنتاجاتهم حول القضايا المصيرية بل وغير المصيرية، فنيتشه مثلا كفيلسوف كان يحب الابتعاد عن الناس كثيرا وكذلك كان ديكارت وغيرهم، وكذا العلماء عند اعتزالهم الناس في معاملهم ومراكزهم البحثية، وكذا الأنبياء كنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يعتزل الناس في غار حراء حتى بُعث، بل لعل الاعتكاف –وكذا الرهبنة– تكون نوعا من أنواع العزلة الموجهة لقضية معينة وهي

التقرب إلى الله، وذلك لأن العزلة تحقق أفضل أنواع الصفاء الذهني والتأمل والتركيز، والذي يحتاجهما بلا شك الفيلسوف في تأمل وتحليل المجتمع والأفكار للوصول إلى الخلاصة التي يظن أن بها يكون تقدم المجتمع وازدهاره، وكذا أمر العالِم فهو يحتاج إلى الصفاء الذهني والتجربة والتحليل والاستنتاج ليكتشف شيئا أو ليطرح نظرية حول قضية علمية معينة، وكذا أمر النبي أو العابد والذي يعتزل الناس ليختلي بربه حتى يحقق صفاء العبودية وكمال الانشغال بالإله وحده.

والعزلة هي الزاد الثاني –كما ذكرنا– بعد المعرفة، وذلك لأن العزلة بغير معرفة أو قضية لتبحث أو تتأمل لا تتعدى كونها اكتئابا وهروبا من المجتمع، والعزلة لا يشترط فيها فترة معينة، فقد تكون طويلة كعزلة الرهبان، أو متوسطة كعزلة الأنبياء والفلاسفة والعلماء، أو قصيرة كتأملك وحدك في قضية معينة قبل نومك، ولكن أفضل أنواع العزلة هي المتوسطة والتي ترتبط بشكل أساسي بالقضية التي تشغلنا، فلا نخرج من عزلتنا قبل إتمامها ولا نستمر في عزلتنا بعدها، بل نقطعها ثم إذا صادفتنا قضية أخرى تستحق العزلة اعتزلنا لأجلها.

والعزلة من حيث كيفيتها مختلفة كذلك، فهناك العزلة التامة كعزلة الراهب في صومعته والعزلة الجزئية كعزلة الفيلسوف والعالم وأقل العزلة وهي عزلة الفرد واختلائه بنفسه لمحاسبتها أو للتفكير في قضية حاسمة تشغل باله، ولذا نحتاج للاننفراد بأنفسنا عندما تتكالب علينا الهموم أو المشكلات لنتناولها بعيدا عن المؤثرات الخارجية من عاطفة وغيرها ولكن قبل هذا قد نلجأ إلى الاستشارة وهي جزء من مرحلة المعرفة والتي هي

لازمة للعزلة حتى يكون لها فائدة ترجى، وأفضل هذه الكيفيات هي العزلة الجزئية إذ أن العزلة التامة تفقد الفرد –مع تطور العالم من حوله– العنصر الأول اللازم للعزلة المنتجة وهو المعرفة، كما أنها تجعله بشكل ما سلبيا تجاه الحياة والمجتمع، أما أقل العزلة فإنها لا تكون كافية لتناول القضايا المصيرية أو الوجودية أو تلك القضايا التي تحتاج إلى تأمل وتعمق طويل، أما العزلة الجزئية فهي وسط بين هذا وذاك بحيث لا تخل بتفاعل الفرد مع من حوله وتكون كافية كذلك ليصل إلى قرارات أو استنتاجات تفيده أو تفيد مجتمعه، فالعزلة تعطي معرفة قد تكون محورا لعزلة أخرى سواء لنفس الشخص أو لشخص غيره.

إنني أخشى أن تفتنني العزلة بلذتها ووهجها الصافي وبما تحمله من ومضات تبعث الطمأنينة في القلب والنور في العقل فأنغمس فيها مغفلا واجبي تجاه من حولي، لكن الإنسان خلق محبًا للأُنس بغيره وهذا ما يجعلني مطمئنا –مهما طالت عزلتي– إلى أنني سأخرج منها يوما ما لأكون بين من أحب، ولأفيد منها وأستفيد، لكنني سأعود إليها دائما، فهي ملاذي إذا اختلطت الأمور وتخبطت السبل وحار العقل.

فَلسَفَةُ الزُّهد

إذا زَهِدَ المرءُ أُبدِيَ لَهُ الوُدُّ حَتّى إذا أَبدى الوُدَّ زُهِدَ فيه.

المُشكِلَة!

إذا كانت لديك مشكلة ولكن تلك المشكلة لا تمثل لك مشكلة فأنت لا ترغب في حلها لأنه ليس ثمة مشكلة في أن تبقى المشكلة مشكلة، فما المشكلة في أن تحتفظ بمشكلتك كيفما شئت؟.

لماذا يسعى البعض إلى حل كل المشكلات!، إن عالم بلا مشكلة قائمة هو عالم فارغ فكل ما نواجهه في حياتنا ما هو إلا مشكلات نسعى إلى حلها وكثيرا ما نخفق وكثيرا ما نتعايش معها ونقبلها، بل وأحيانا نحبها.

ولعل ما يجعلنا نستمر في حياتنا أننا نركز –لا إراديا– على المشكلات التي نجد لها حلا، لأننا لو انتبهنا وتحملنا عبء كل مشكلة لا تُحَل لما وَجَدَت السعادة إلينا سبيلا.

وثمة مشكلة حقيقية وهي أن يكون في طبعك التركيز على المشكلات المعضِلة التي لا تجد لها حلا، وللعجب فإن هذه المشكلة هي التي تُرَوِّضُ النفس على التعايش بل وربما تدفعها إلى حب المشكلات، إذ أن هذه المشكلات هي التي ترسم ملامح شخصياتنا وهي التي تنقش بغمارها على جدار النفس لتجعل له وَسما خاصا لا يتكرر، وهي مِلحُ الحياة الذي لن نجد لها بدونه طعما.

إن الباحث الحقيقي عن سر نفسه وسر الوجود سيجد في كل لمحةٍ وفي كل تفصيلٍ وفي كل خاطرةٍ وفي كل فكرٍ مشكلة، وستتكشف له مع كل مشكلة جزء من الحقيقة.

ولو أن الباحثين على مر التاريخ توصلوا للحقيقة الكاملة لما كان للذين من بعدهم حياة، فوجود الإنسان مرتبط بالمشكلات التي يواجهها وبالحقائق التي تَتَكَشَّف له.

ومتى توقفت تلك المشكلات عن الظهور أو متى استطاع الإنسان حلَّ جميع المشكلات فسينتهي دور البشرية وستنقرض، المشكلة الحقيقية هي ألا تكون لديك مشكلة، أرأيت... ليس ثمة إنسان بلا مشكلة.

الوَشـــم

تذكر دائما أن الظروف القاسية التي تمر بك -مهما كانت- هي مرحلة مخاض، فمع آلام المخاض تولد الحياة، وكما قيل "*لابد دون الشهد من إبر النحل*".

هذا في أمور الحياة العادية أما العشق فليس كذلك، فهو كالوشم تعذب بدقه في قلبك وبإزالته منه، ولا بد أن يبقى أثر يشوه قلبك لأن المشاعر هي الحقيقة، فلا جراحات تجميل.

لكن اعلم أن هذه الندبة ستكون وساما إذا استفدت مما سببها، وإذا استفدت من تجاربك السابقة وأعملت عقلك وعرفت حقيقة العشق، فالعاشق لا يؤمن بغير رأيه وحين يسأل من حوله إنما يحاول أن يشعرهم بما هو فيه منتظرا أن يوافقوه أو يتركوه، فقد عماه عشقه ليس فقط عن رؤية الحقيقة ولكن عن سماعها ممن يهتم لهمه.

وقد يكون مقتنعا بخطئه ولكن الداء تفشى في قلبه فلا يستطيع نزعه فهو -كما قلنا- مؤلم كنزع الوشم وكلما زاد حجم الوشم زادت آلام نزعه فيركن إلى تركه حتى وإن لم يعد يعجبه أو يستمتع به.

غير أن هذه الآلام ما هي إلا مخاض قلبك وهي التي تنشئ قلبا جديدا قويا مجربا يعرف كيف يواجه الصعاب وكيف يعمل عقله ولا ينساق وراء كل ما يجذب انتباهه ويفكر قبل كل شيء يفعله، لم وكيف يفعله؟

دع زمانك يريك مكانك فهو أعلم بمكانك منك، مرت عليه القرون وهلكت وما هلك، ابذل وسعك وستجده يعينك، لا تعانده، ومعاندته أن تؤمل شيئا ليس بيدك والأدهى أن يشترك معك في الأمل غيرك، كالعشق، فيصبح من الصعب موافقة الزمن، إن وافقته أنت خالفه صاحبك وإن وافقه صاحبك خالفته أنت.

وإذا ما أقدمت على أمر له علاقة بالحب والمشاعر خاصة، فواجب عليك أن تكون واثقا منه فهو ليس كالتجارة تجازف بمالك لتربح أو تخسر، ففقد المال ليس كجراح القلوب وكل الجراحات تمر وتنسى إلا جراح القلوب فإنها لا تشفى، فعليك نفسك أكرمها تكرمك واحفظها تحفظك.

فِتَنٌ

إذا كان المرء يعد نفسه منافقا ثم لا يدري كيف الصلاح كان هذا لأمرين، الأول شؤم النفاق والثاني عدم الإخلاص في البحث عن الصواب، أما إن عرف الصواب ولم يعرف كيف السبيل إليه فذلك لقلة مجالسة أهل الصلاح، أما إن عرف السبيل ولم يسلكه فإن له حالين؛ الحال الأول هو الاستكبار والثاني هو غلبة الشهوة وكلاهما فيه إعراض، فالمستكبر يعرض ظنا منه أن الحق قيد لا يسري عليه وصاحب الشهوة يعرض مخافة أن تقطع لذة الشهوة.

إن من أعظم البلايا وأوقع الرزايا فتنة الدين وخاصة على من لم يؤته الله يقينا وصبرا وحكمة؛ فاليقين إن كانت فتنة شبهة، والصبر إن كانت فتنة شهوة وسلطان، والحكمة إن كانت فتنة أهلون.

وأعظم هذه الفتن فتنة الشهوة والأهلون ففيهما يغرق اليقين في بحر الغفلة والغضب فلا يرد الصبر وحده اندفاع الشهوة إذا كان كمال اليقين مفقود ولكن أصله معقود، فمتى انقشعت غيمة الشهوة وعاد العبد إلى سبيل الصلاح نبتت شجرة اليقين، وكذا فالغضب ينافي الحكمة، فإذا كانت فتنة الأهلون راحت تعالج أصل اليقين وهنا يثبت الله من يشاء، فإن الشهوة ساعة والأهلون عمر ووقع الساعة ليس كوقع العمر وكما قيل "*ما تكرر تقرر*".

بَوحُ الكِتمانْ

مشاعر مضطربة تجتاحني، لا أدري ما سبب حزني، إنني أرى الوجوه باسمة ضاحكة لنجاحها لكنني لا أقوى على الابتسام إلا مجاملة لهم، عجيب هو أمري لقد أصبح وجهي أقرب ما يكون لوجه تمثال أو كأنني أرتدي قناعا من اللاشعور حتى أن الجميع قد أعياهم هذا الوجوم فيا ليتني أعرف سببه!.

لا أخفيكم سرا فأنا في بعض الأحيان أتمنى لو أظل على هذا الحال ما حييت بل أتمنى ألا ألاقي صديقا فيضطرني لابتسامة، قد أكون اعتدت هذا الحال وقد ترمونني بالجنون ويا ليتني كنت مجنونا؛ حينها لم أكن لأفكر أو أكتب أو أبوح بما أشعر به.

إن الجنون نعمة لا يعرفها إلا من ترنح بينه وبين العقل حيث يوجد الحمق، فالأحمق يعامل كمجنون ويحاكم كعاقل.

إن بين خلجات صدري من الهم ما أنوء بحمله ولا أرضى لغيري أن يشاركني حمله، همٌّ بل هموم لا أتذكر لها سببا إنه ذلك الطابع الغبي الذي يذكرني حزني وينسيني سببه.

الرَّأيُ الآخَر

الذين يؤمنون بالرأي والرأي الآخر إنما هم مخدوعون!، ففي غمرة دفاعهم عن فكرتهم لا يقبلون برأي من يقول خلاف ذلك فيقعون فيما ينتقدون.

وَحيـــــداً شَـــــريداً أُحَـــــدِثُ نَفســـــي

وَأَســـــأَلُ مـــــاذا يُخَـــــبّي القَـــــدَرْ

وَمازِلـــــتُ أَبكـــــي وَخَـــــوفي وَشَـــــكّي

يَسُـــــلُّ فُـــــؤادي وَيَمحـــــو الصُّـــــوَرْ

تَـــــوارَت سَمـــــائي لِيَعلـــــو بُكـــــائي

وَيُغـــــرِقَ دَمعـــــي بِحـــــاراً وَبَـــــرْ

سَـــــلِ القَلـــــبَ كَـــــم أَرَّقَتـــــهُ الأَمـــــاني

وَكَـــــم كـــــانَ في شَـــــوقِها يُحتَضَـــــرْ

نَبَتَةُ الوَهـمْ

من المعلوم أن الإنسان يتمنى البقاء مع من يحب وأنه إذا خُيِّرَ أن يبقى معه لاختار ذلك بلا أدنى تردد، فما الذي يدعو بعضنا ألا يختار البقاء مع من يحب خاصة إذا أمكنه اختيار ذلك؟، ما الذي يجعله يرغب في الرحيل رغم حبه؟، ما الذي قد يقوده إلى ذبح هذا القلب ودفن ذلك الحب؟، ربما كانت أوهاما ولكن الأشخاص الواهمين وحدهم يرون الوهم حقيقة، فإذا كنا رضينا بالوهم فما بالنا إذا ضاقت الأمور واستحكمت احتكمنا إلى الحقيقة!!.

الحب وحده يجعل الإنسان سعيدا بموته راغبا في عذابه، ربما إذا كان هذا العذاب يقابله سعادة المحبوب، بل ربما رغب في العذاب إذا رأى أنه ينبغي ألا يسعد طالما لم يكن مع من يحب، هل هذه المعاني الـ ... المذكورة ممكنة؟!!، هل هي صادقة؟، أم أنها امتداد لنبتة الوهم اليانعة على أرض الأسى الصلدة.

البُعدُ الرّابِعْ

من المؤسف ألا يرى الإنسان سوى ثلاثة أبعاد، والإنسان إذا لم يرَ الشيء كان من العسير أن يصدقه، فأنت إذا آذيت شخصا، ولم يؤذك ظننت أنه لا يستطيع، وإن قال أنه يستطيع غير أنه لا يريد لكذبته، وربما تنعته بالجبن أو العجز أو الخوف وهو غاية ما صده عنك عفوه عند مقدرته أو حبه لك مع إيذائك له، فكيف يظهر قدرته ولا يؤذيك، كيف يثبت لك ذلك؟!!

حتما لن يتمكن إلا إذا ترك ذلك البعد وانتقل إلى البعد الذي يمكن أن تراه، لا تظن أبدا أن من لا يفعل لا يقدر، فكم من قادر على شر تركه طاعة لله أو خشية أن يقال عنه شرا.

في ذلك البعد تختفي الظنون ويشرق اليقين فترى كل شيء على حاله الصحيح، ووراءه يظهر الرياء والكذب والتصنع والشك.

دَرَجاتُ النِّساءْ

النساء على درجتين فالأولى تستحق أن تُقتَل لأجلها والأخرى تستحق أن تقتُلها.

هَلوَسَة

أحيانا يصل بك الحال إلى ألا تستطيع افتعال السعادة لمجرد سعادة غيرك أو كونك سبب في سعادتهم خاصة إذا كان هذا مما ينخر فيك، وإن كان منبع كونك سبب سعادتهم قهرك لروحك سواء لم يعلموا هذا أو علموه وتجاهلوه فهذا أدعى إلى أن يحين وقت انهيارك، ومهما تأخر فإنه سيحل.

السعادة لا تشترى وإنما تختلس لأنها ليست الأصل ولأنك تستغل كل وقت ممكن لإسعاد ذاتك إذ أنك تدرك أن مآلك في النهاية إلى التعاسة فإنما السعادة كالمقويات لمريض السرطان أو الإيدز، فما بالك إذا كانت حتى لحظات سعادتك مفتعلة ومفبركة وما بالك إذا كنت تفعل ما يُرضي غيرك لأنك تحبه أو لأنك لا تطيق ألا يرضى عنك ومع هذا تُجبَر على أن تبتسم وتفرح لقيامك بما لا يسعدك.

إنها دكتاتورية النفس البشرية المرتبطة بتقاليد فارغة مع بعض الوازع المنتسب للدين زورا والترهيب وبعض أوهام الحب والحرص، إنها التركيبة السحرية للسعادة التعيسة أو التعاسة المبتهجة والتي كلما تناولتها سافرت إلى أعماقك لتعبث بتركيبتك النفسية وبأعضائك العقلية وبأركانك الفكرية، وتظهر أعراضها الحسية على جسدك بانهياره وعلى عقلك بفقدانه للتمييز والتركيز، ليس هذا فحسب بل إنك إذا وصلت إلى الدرك الأسفل لهذا الشعور يكون أول المتضررين منك نفسك ومن كنت تسعى إلى إسعادهم أو تُجبَر ذاتيا أو خارجيا علي إسعادهم.

ستصبح يا هذا مجرد وسيط مستَهلَك ومستَنفَذ الإمكانات... وسيط موهوم، وستتجلى أمامك الحقائق إذ كنت تظن أنك محور العالم أو على أقل تقدير محور عالمك الخاص لكن الحقيقة تتكشف أمامك وتدرك خديعتك وأنك ما كنت إلا وسيلة ذات كينونة وتفرد وهمي لا يمت للواقع بصلة فكل إراداتك كانت مستعبدة لدى عوامل وشخوص كثيرة.

ولو حدث غدرا أن نجحت فستصطدم يوما ما بحقيقة أن النجاح لم تذهب إليه أو تسعى بل أتاك هو لا لأنك تستحقه بل لأنك حشرت معه في نفس الزاوية فحتى هذا النجاح المُدَّعى لن تشعر له بلذة، وإذا تبقى لديك بعض العقل فستجد أن سبيلك الوحيد هو أن تبدأ من الصفر أو ربما دونه بقليل.

حَمقاءْ

حمقاء هي من تظن أن الحب إذا أفضى إلى رغبة فقد قل أو انحسر فإنما الرغبة فرع من فروع الحب، وحمقاء هي من تظن أن الرغبة وحدها قد تفضي إلى حب، فإن النهر يتفرع منه الفرع إذا فاض وكثر ولا يتفرع من الفرع النهر.

لَـــــو كـــــانَ يُطَيِّـــــبُ خاطِرَهـــــا

أَن أَهجُـــــوَ نَفســـــي لَفَعَلـــــتُ

وَلَسُـــــقتُ إِلى النَّحـــــرِ قَصـــــيدي

وَذَبَحـــــتُ الأَشـــــعارَ.. قَتَلـــــتُ

لَكِـــــنّي لَم أُخطـــــي يَومـــــاً

أَو أَقصِـــــد سُـــــوءًا أَو قُلـــــتُ

فَلتَعـــــذُرني إِن لَملَمـــــتُ

أَشـــــعاري وَالآنَ رَحَلـــــتُ

عُقدَةٌ

ربما أكون معقدا، لكنني لا أزعم أن التعقيد مما يُتَبَرَّأُ منه أو مما يعاب، فالتعقيد كثيرا ما يكون وسيلة لحماية الذات وخط دفاعي للنفس البشرية كالذي لديه كنز فيحرص على حمايته بتعقيد وسائل الوصول إليه.

لماذا لا أجد سعادة حقيقية؟، ولقد نَكَّرتُها لأنني لا أرغب في حصرها في أول ما سيتبادر إلى ذهنك من أن السعادة الحقيقية هي في عبادة الله، إنني دائما أسأم من التحدث في المفروغ منه، إنني لا أجد سعادة لأنني إذا سعيت إلى شيء تدركني ثلاث مراحل السعي والتحصل والدوام، ففي السعي أخشى ألا أصل وفي الوصول أخشى ألا تدوم سواء لخطئي أو بغير إرادتي، فلا أنعم بشيء أسعى إليه ولا تحصلت عليه، فما بالك إذا فقدته بالفعل؟!... أظنك تدري.

النَّصيبْ

يقولون النصيب، فليعلموا أنه إنما يرضى المرء بالنصيب والقضاء إذا بذل وسعه، فإنه يكون متوكلا، أما إن لم يبذل وسعه فإنه يكون متواكلا فمن توكل وفق، ومن تواكل أخفق.

انتِظارْ

في انتظار العيد... لا لأفرح فأنا لم أشعر بأي عيد منذ عشر سنوات، لكن لأشاهد الناس وهم سعداء يبتسمون ويمرحون معا، أشاهدهم وكأنني عدسة إحدى الكاميرات في أحد الأفلام، وكأنني في حلم دون أن يحتويني ذات البعد الزمني الذي يحتويهم، لأنه سيكون كعادتي عيد من حيث المسمى فقط، ولأنني لن أرى تلك الوجوه التي اعتدت أن أراها أو أبحث عنها فيه، ولأنني لن أراني في أعينهم، ولأنني مرتاح أو أَهِمُ نفسي بالراحة بدونهم، ولأنني حتما سأوقن أنني أتحلل وأتلاشى، ولأنني سأكون حيثما أكون وقتما أكون كيفما أكون.. بدوني.

أَيُّ عيدٍ ! !

أَيُّ عيـــــدٍ أَنـــــتَ قُـــــل لي!
أَنـــتَ وَهـــمٌ مِثـــلُ خِلّـــي
قُـــــل وَلا تُخفـــــي فَـــــإِنّي
لا أَراني خـــــــــابَ ظَـــــــــنّي
أَيُّ عيـــــــــدٍ!، وَلِّ عَـــــــــنّي
لَـــيس سَــــعدي بِـــــالتَّمَنّي
كاذِبــــــاً تَـــــدعو لِفَـــــرحٍ
وَالآســـــى هـــــا نُصـــبَ عَيـــني
ماتَـــــتِ الأَفـــــراحُ حَمقـــــى
عاشَـــــتِ الأَتـــــراحُ، فَـــــنّي
عيـــــدٌ انـــــتَ نَعَـــم وَلَكِـــن
عيـــــدُ حُـــــزنٍ أَو تَجَـــــنّي
كُــــــلَّ عــــــامٍ تُــــــزرَعُ ال
أَوهــــامُ وَالأَوجــــاعَ تَجــــني

وَالهنـــــا لَـــــو جـــــاءَ لَحظـــــاً

لَـــــيسَ يَـــــأتي دونَ مَـــــنِّ

بِئسَـــــــتِ الأَعيـــــادُ لَـــــولا

أَنَّ فيـــــكِ خَفِـــــيَّ حُســـــنِ

أَجمِلـــــــــي إِنّي سَـــــــــقيمٌ

وَارحَمـــــي روحـــــي وَجَفـــــني

تَضحِيَةْ

لا يبدأ الحب الثاني إلا بعد انتهاء الأول، ولا ينتهي الأول إلا إذا وجد أنه لا يستحق، فإذا أحببت شخصا ولم تستطع إسعاده، فأره أنك لا تستحق، فربما يجد سعادته مع غيرك.

بُؤسْ

لا أستطيع أن أحدد كيف أنا ولِمَ!!، كل ما أستطيع قوله أنني... لأنني، فقط بلا تفصيل أو حتى اختصار، وباعتبار أهداف الحياة المتعددة على اختلافها بين الناس فليس من بينها ما أحيا لأجله، حتى أنني بتُّ لا أدري أأنا مبتئس لأنني لا أجد بينها ما يهبني الإرادة أم أنني لا أجدها لهذا أبتئس، إنها المعادلات المستحيلة، كالبيضة والديك...عفوا.. والدجاجة، وإن كان الديك أيضا محور في هذه المعادلة لكنهم يتجاهلونه دائما... تبا لهم.

انتِحارْ

"إنه ليس ثمة سوى مشكلة فلسفية واحدة يمكن أن تعد جدية بحق، وهي مشكلة الانتحار، وأن نحكم ما إذا كانت الحياة جديرة بأن تعاش أم لا "[1] **ـ ألبير كامو.**

نعم.. الموت هو الجواب وما يليه هو الحقيقة الواحدة، لكن ما قبله سواء كنا نراه سرابا أو حقائق وسواء كنا نراه جدا أو هزلا فإننا إن فقدناه فقدنا ما بعده، وما كانت هذه الحوادث إلا لتجعل لما يليه لذة وما يسبقه كذلك، فإن أنت لم تتذوقها أو تجد لنفسك فيها رغبة فلا تزعم أن بإمكانك البحث فيه أو فيما يليه، ربما لهذا هو ملجأ الجميع، حتى أنك إذا بحثت في أنفس الناس، وجدتهم يرهبونه، في الحقيقة يرهبونه للحظات، فقط عندما يكون بين أيديهم ما يرغبون فيه، فإذا تحصلت النفس على كل ما ترغبه ولم تجد ما تفعله تتجه إلى الموت، حتى أولائك الذين أنعم الله عليهم بفضله يتمنون الموت في سبيله.

الموت هو الحقيقة الباقية، ولأنه كذالك يتقرب إليه الجميع في فرحهم وحزنهم في سخطهم ورضاهم، والموت ليس كما يظنه البعض غياب العلامات الدالة على الحياة بانقطاع الروح فهناك روحان، السر والرغبة، فالسر بيد الله والرغبة بأيدنا، فإذا انتحرت بفناء السر فلابد وأنك افتقدت الرغبة، وإذا انتحرت بفناء الرغبة فقد انتفت علة السر وفائدته وإن بقي.

[1] – أسطورة سيزيف – ألبير كامو.

صَدمَة

"أتعلل بجهلي بكُنه وجودي كي أحيا فإن فهمت أو اعترفت بفهمي ... حتما سأقرر الفراق" **ـ رباب النوري**

كثير من الأشياء التي تدفعنا للحياة ربما لم يحاول أحدنا حصرها أو استخلاص أهمها لكننا نحيا لأننا ندرك أن هناك عدة أهداف وإذا انهار أحدها فإننا لا ننهار لأننا ندرك بعقلنا الباطن أن هناك أهداف غيره حتى ولو لم نتذكرها تحديدا، أما أن تجهلها جميعا لكثرة انشغالك عنها أو لأنها حقيقة لم تكن من صنعك فإنك حتما لست هنا أو هناك.

وكثيرا ما يكون الجهل دافعا للحياة لأن الجاهل لديه الرغبة في المعرفة –على الأرجح–، أما إذا اكتشف واتضح له أنه كان يحيا للا شيء أو لهدف معوق أو أنه بنى جميع أحلامه أو قل –إن شئت– أوهامه على أمل أو شخص أو قضية زائفة، فإنه سيؤثر العيش في الجهل الذي لن يصل إليه إذ أزاله بعلمه، وسيندم على ذلك، وحينها سيكون إلى الانتحار تقنيا أو عقليا أقرب.

مُحالٌ أَن أَبوحَ إِلَيكْ*

(١)

أَغارُ عَلَيكَ لَكِنّي

مُحالٌ أَن أَبوحَ إِلَيكْ

أَغارُ عَلَيكَ مِن قَلبي

وَمِن قَبلي وَمِن بَعدي

وَفي قُربي وَفي بُعدي أَغارُ عَلَيكْ

إِذا النَّسَماتُ هَبَّتْ

كَي تُعانِقَ مَاءَكَ المُنسابَ في كَفّي

وَتَنشُرُ عِطرَكَ الفَوّاحَ في صَدري

أَغارُ عَلَيكْ

(٢)

إِذا أَفَلَ الصِّبا عَنّي وَجَنَّ الشَّيبْ

* كتبتها في العدوان الأخير على غزة إبان حكم مبارك.

إذا قالوا كَفاكَ هَوىً فَهَذا عَيبْ

سَتَبقى في مُخَيِّلَتي

وَفي الأَعماقِ أَسئِلَتي

وَتَبقى أَنتَ مُعضِلَتي

وَفيكَ مَنِيَّتي لا رَيبْ

وَرَغمَ جَحيمِ أَشواقي

وَجَمرٍ دَكَّ أَحداقي

وَرَغمَ بُكاءِ أَشعاري

وَرَغمَ فَناءِ أَعذاري

مُحالٌ أَن أَبوحَ إِلَيكْ

(٣)

مُحالٌ أَن أَبوحَ إِلَيكْ

وَفيكَ الكِبرياءُ يَموتْ

أَغارُ عَلَيكَ يا نيلي

وَيا أَرضي وَيا وَجَعي

لِمَ الكِتمانُ بُحْ لا تَنزوي عَنَّا

كَفاك سُكوتْ

أَغارُ عَلَيكَ يا وَطَني

كَفى عَبثاً أَخاكَ يَموتْ

أَغارُ عَلَيكَ أَن تُرمى بِخُذلانٍ

كَفاكَ قُنوتْ

(٤)

أَغارُ عَلَيكَ

فَاثأَر مِن عَدُوِّكَ وَاكتَسِب شَرَفاً

فَغَزَّةُ بِالحِصارِ تَجوعْ

وَذاكَ الذِّئبُ رَغمَ هُزالِها يَعوي

يُمَنّي نَفسَهُ بِخُضوعْ

فَهيْ بِصُمودِ عِزَّتِها

وَهُوْ يَسعى لِذِلَّتِها

وَأَنتَ أَبَيتَ نُصرَتَها

أَصِرتَ الذِّئبَ يا وَطَني؟!!

أَطابَ الذُّلُّ يا وَطَني؟!!

فَإِن كانَ السَّلامُ كَذا

فَلَيسَ إِلى الإِباءِ رُجوعْ

وَتَبّاً لِلَّذي يَرضى وَيَعذُرُ نَفسَهُ وَهماً

وَيَهجَعُ في رِئاسَتِهِ

وَيَحسَبُ أَنَّ بَعدَ فَناءِ شَمسِ العِزِّ ثَمَّ سُطوعْ

(٥)

مُحالٌ أَن تَرى شَعباً يُبادُ وَأَنتَ كَالتِّمثالْ

وَأَنتَ كَبيرُهُم لَمّا

يُعادُ إِلَيكَ سَيفُ الغَدرِ

أَنتَ القاتِلُ المُحتالْ

غَداً تُحكى حِكايَتُنا

وَيُسأَلُ مَن أَتى جُرماً

وَأَينَ الخائِنُ المُغتالْ

سَتَسمَعُ حينَها قَولاً

كَحَدِّ السَّيفِ حينَ يُقالْ

وَأَنتَ الأَبكَمُ المَلعونُ مَنبوذٌ بِلا مَأوى

سَلوُهُ، كَبيرُهُم هَذا

سَلوه .....

وَأَنتَ كَالتِّمثالْ

قَلبٌ بَرّيّ

في عيني ذبول كم أتمنى لو ترويها برؤياك، عندها تنبت البسمة لتضرب جذورها في شفتي فتشرق بين سيول الدمع وغمائم الحزن شمس الشعور وتروض كلمات الشوق ذلك القلب البري الذي ما جرب الحب.

عَدَمْ

"*تكون أو لا تكون، هذا هو السؤال!!*" **ـ وليام شكسبير**

إذا سألت أحدهم كيف تتمنى أن تكون لقال لك أتمنى أن أكون.... ، نعم الجميع يتمنى أن يكون شيئا، أما أنا فأتمنى أن أكون، فقط، نعم أتمنى أن أكون، أن يكون لي كينونة، لست أعبأ بكنهها، المهم أن أكون، ربما لا يتفق الشعور مع العدم، وإن كان ثمة صدفة قد تجعل العدم يشعر فقد صادفتني، وكأنني لم أخلق، وكأنني فضاء وكأنني صفر.. في الحقيقة.... عدم.

مَملوكْ

عندما يجف الدمع تظنين أنه لانقطاع الحزن، فلتعلمي أن خيمة الحزن هي بيتي الأبدي، وإنما جف الدمع لانقطاع الأمل، ولزوال أسباب العمل، ولاستعباد القلوب بعضها وقد كانت سواء كلها، فلا حيلة لمملوك أمام سلطان جائر.

ارتيابْ

من الصعب –احساسا– أن ترتاب في كل شيء، ومن السهل –فعلا– أن تصل إلى هذه الحالة، إن اختلاق هذه البذرة –بذرة الشك– في أي فكرة تعصف بها، فإذا غدوت مرتابا من كل ما أنت مقدم عليه ومن كل ما خلَّفته، ومن نظرات الناس إليك أهي شفقة أم عطف أم اتهام بالغباء أو الجنون أو الجهل، وحتى من قراراتك ومن أسلوبك ولم تعد مدركا أهي قراراتك حقا أم قد عبث أحدهم بعقلك وأملاها عليك بوسيلة ما، فلن تستطيع تحمل تبعات أي شيء وستقف مرتابا من كل شيء، ولن ترضى بأي شيء، لأنك ببساطة لا تثق في أي شيء.

غَباءْ

أن تظن أن هناك من هو أحرص عليك من أهلك، فأنت غبي، والسبب بسيط، وهو أن حرصهم عليك فطري ككل شهواتنا ونشواتنا وما لا نجد له دافعا عقليا في ذاتنا غير أننا نفعله في وقت ما، فحتى لو لم يجدوا مبررا حقيقيا لحرصهم عليك فسيحرصون، وحتى لو كانت كل المبررات تؤيدهم في ألا يحرصوا عليك فسيحرصون، ولا يغلب الفطرة شيء مادامت سليمة، ألا يستحق من هو من هذا القبيل وعلى هذه الشاكلة أن تتنازل عن كِبرِك حتى وإن كنت محقا، لكن هيهات، فأنت مرتاب، حتى في غبائك وفي كلماتك التي تظنها أو يظنها الناس نفحة من عقل أتتك على حين غفلة من ذاتك، فأبّى لك أن تخطو خطوة.. إلا إلى الوراء.

رَحيلْ

ما أجمل الرحيل عندما يخلدك كذكرى جميلة، والإنسان المتميز هو الذي يختار وقت رحيله بنفسه قبل أن يفرض عليه.

حَيَاة

لابد أن يصل الإنسان المفرد في مرحلة ما –مهما كان مرتاحا– إلى انعدام الاستقرار النفسي لأن حياته كلها متعلقة به وروتينية، حتى وإن كانت روتينية من حيث مغزاها لا أسلوبها، ولابد له أن يخرج عن هذا الروتين، ولكن أنّى له أن يكون غيره، هذا من غير المعقول، ولهذا يبحث الإنسان على مدار حياته وبحكم بشريته عن أصدقاء ورفاق يضيفون إلى حياته أبعادا وشخوصا وتفاعلات جديدة تنعشها، لكنه ما يلبث أن تفرقه عنهم الأيام والأحداث، فيتخذ غيرهم حتى يصل إلى حيث لا يجدي اتخاذه شخصا أيا كان ليكون ظله أو ليكون هو، ولهذا شرع الله الزواج، حيث يكون الزوج والزوجة شقان لشخص واحد على اختلافهما الشخصي في بعض الأمور، ويسعى بعدها لأن يكون له أبناء حيث الرابط بهم أكبر فالزوجة قد تطلق أم الابن فلا يمكن أن يُترك.

قد كنت أحسب أن حياتنا روتينية بحتة حيث يعمل الرجل ليتحصل على المال ويتزوج وينجب ويساعد أولاده ليعملوا ويتحصلوا على المال ويتزوجوا وينجبوا وهكذا، ظننت أن هذا هو الروتين حتى اكتشفت أن هذا هو المهرب من الروتين، إنه ببساطة وسيلة وهدف، ببساطة أكثر.... حياة.

شُعورْ

لقد خُلِقَ الشعور لدينا ليستخدم لا ليُهمل، والإنسان الذي لم يستحضر أو يتعرَّض لجميع المشاعر الممكنة – من فرح وحزن ولهفة وخوف ورغبة وإشفاق وارتجاف وأبوة وبنوة وغيرها– إنسان يفتقد الكثير، بل إن مدار حياتنا على الشعور فالصداقة شعور وتحقيق الذات شعور والمحبة شعور والزواج شعور والنصر شعور والهزيمة شعور، إننا إنما نعيش لنهرب من هذا إلى ذاك وكلها.. مشاعر، فليس يُتَخيل إنسان بلا شعور طيبا كان أو خبيثا، فهو بمثابة الدافع، بل إن الحروب تقوم على شعور، فالحقد والغضب والثورة والضيق والانتقام كلها مشاعر، ولعلنا إذ نتنكر للمشاعر الطيبة إنما يكون تخوفا من أن نرمى بالضعف ولأنها ارتبطت في أذهاننا بالطيبة والسكينة، ولكن الحقيقة أنه ليس منا إلا وشعور، وهذا هو الذي يجعلنا في أماكننا وحيواتنا حيثما كنا وكيفما كنا ووقتما كنا ...نحن.

ذُهولْ

كالصخرة..... نعم في بعض الأحيان نكون، نقف ضد التيار ونمنع الحوادث التي نبغضها والتي نظن أنها قد تؤذينا أو تؤذي غيرنا، وما في قلوبنا إلا الخير، نقف في مجرى السيل بجرأة وحزم حتى إذا علا الماء وغمرنا ثم زاد فدفعنا، نصبح أدوات بين أذرعه يقتل بنا أكثر مما يفعل وحده.

فاجِعَةْ

من الصعب أن تفقد إنسانا لم يفقده قلبك، وأن تتحول كل سمات التواصل إلى إنقطاع وأن تفقد أقل معاني الود الملموس وأن تصبح كأن لم تكن، وأن تتذكر لحظاتك معه وكأنها حلم جميل أو طيف عابر أتى ليذكرك -بعد أن واسيت نفسك بأنه لا سعادة في الدنيا- بأن ثمة سعادة في هذه الدنيا لن تنالها.

في الحُبِّ والرَّحيلْ

"أحيانا يقف خوفنا من خسارة الآخرين لنا- بمحض ارادتهم- حاجزا بيننا وبينهم إلى الحد الذي يدفعنا إلى خسارتهم اختيارياً خوفا من تلك اللحظة التي يقررون فيها التخلي عنا"[٢] **ـ عمرو صبحي**

أحيانا نفتعل المشاعر حتى نصدقها ونحول دون تأثيرها سلبا علينا، وهذا قد يفلح على المدى القريب لكنه على البعيد لا يفلح، إذ أن رحيل أحدهم لا يعني انتزاعه كلية من قلوب وعقول الذين عرفوه وإنما الإنسان تجارب ولا بد له أن يذكر شيئا مما كان لهم معا، فحتى الموت لا يقدر على انتزاع شخص ما أو إلغاء ماضيه، فإن أنت تخوفت فقدان أحدهم فهذا على حالين إما فقدان حال موته أو فقدان حال حياته.

فإن كان حال موته فإنك لا تستطيع الحيلولة دونك ودون أبويك وهم – على الأرجح الأقرب إليك- إذ أن وجودهم في حياتك لم يكن اختيارا، كما أن رحيلهم كذلك ليس باختيارهم، وإن كان حال حياته فهي على حالين الأولى أن يكون رحيلهم على غير إرادتهم وهذا حاصل مع الصديق كما حاصل مع الحبيب، ولا يحمل هذا على التنكر للشعور بيد أنه قد يحمل على التخلي عنهم إذا كان الحديث عن الحبيب فالصديق قد يذهب ويجيء غيره وليس ثمة مشاعر عميقة في الصداقة كتلك التي في الحب الخالص،

[٢] – يوميات كهل صغير السن – عمرو صبحي.

وهذا حاصل فينا إذ أنه لو افتقدت الصلة مع الصديق انقطع أمر الود أما مع الحبيب فإن إنقطاع الصلة يؤجج الود ومن ثم الحزن.

أما الحال الثانية، فأن يكون رحيلهم عن قصد وعمد وإرادة، ففي هذا الحزن كله إذ أن الحب لا ينشأ إلا عن ثقة في كل مراحله، فرحيلهم على هذا الحال ينقض الثقة التي بني عليها الحب، غير أن الحب وإن ابتنته الثقة فإنه ينفك عنها في مراحله المتقدمة من العشق والهيام والتتيم، فحتى وإن أخل أمر بالثقة فإن القلب لا ينفك يعشق معشوقه ويرجو وصله على علة في الثقة، فالثقة حال العشق أشبه بالأداة التي لا تدخل أصلا في تركيبه بل تساهم في بنائه ثم تمضي، وهذا ما كان عليه عشاق أول الزمان الذين تتيموا بنظرة عين أو همسة صوت دون معاملة تنبيء عن كينونة المعشوق حتى جُنَّ بعضهم.

والمقصود أن لذة العشق والوصل تطغى حين تنضج على كل ما قد يقدح في المحبوب حتى يرى المرء المساويء محاسن ولا يأبه للقيل والقال بل إن المرء حينها إنما يرغب بسؤاله الناس عن حاله أن يوافقوه لا أن ينكروا عليه وينبهوه، لذا فإن اختيار الرحيل خشية أن يختاره الآخر أمر نظري بحت، فمن قدر عليه لابد وألا يكون قد تأصل الحب في قلبه فضلا عن العشق بل إن هذا يكون في مرحلة الإعجاب، أما إن كان الحب قد تأصل، فإن المرء يقبل بأقل القليل وحتى لو مُنِعَ قسرا فإنه يبقى قلبه عامرا بذكر المحبوب ويظل وفيا له حتى آخر رمق ولا يختار الرحيل عنه إذا كان صادقا وبارا في حبه حتى يختاره حبيبه وهو حينها لا يقبل به وإن أجبر عليه، بل ويتعدى الأمر إلى السعي إليه حتى وإن رفضه شخصا، لذا فإنه يستحيل العشق فعلا بين اثنين إلا في ندرة الندرة.

أُمُّ الدُّنيا

(١)

أَرى امرأَةً كَأُغنِيَةٍ

تُناضِلُ في حُدودِ الفَرحْ

وَتَبعَثُ في ثنايا الرُّوحِ

ما يُنسي هُمومَ الجُرحْ

أَرى امرأَةً ولا امرَأَةً

تُسَخِّرُ هَذِهِ الدُّنيا لِأَجلِ الحُبْ

وَتَسخَرُ مِن مَصائِبِها

وَتُلقي حَبلَ غَارِبِها

وَتَجمَعُ حَولَها أُمَماً

بِذاتِ القَلبْ

وَتَرمي سَهمَها مَدَداً

تُصَوِّبُ في جَبينِ القَرحْ

(٢)

هِيَ المُثلى إذا مَثُلَتْ

لِعَيني أَو إذا ثَمِلَتْ

هِيَ الزَّهراتُ مُشرِقَةٌ

عَلى حَدِّ الضَّنى ذَبُلَتْ

هُمُ مَنعوا إذا عَطَشَتْ

هُمُ قَطعوا وَقَدْ وَصَلَتْ

هُمُ بَخِلوا وَما بَخِلَتْ

وَإِن مَرضوا بَكَتْ أَسَفاً

تَسُحُّ الدَّمعَ وَابتَهَلَتْ

هُمُ زَعموا

بِأَنَّ البُؤسَ إِرثٌ أَورَثَتهُ لَهُم

وَلا وَاللهِ ما فَعَلَتْ

(٣)

أَنا الجاني

عَصيتُ الرَّكبَ كَي أَحمي مَمالِكَها

لِتُسعِدَني وَأُسعِدُها

أَنا الجاني

وَكُلُّ الرَّكبِ يَعزِفُ

لَحنَ خُذلانٍ وَنِسيانٍ فَأَلهاني

وَصَوَّرَ لي بَقايا هِمَّتي وَهما

وَأَوهَمَ عَقليَ المِفتونَ

أَن أَضحى لَهُ فَهما.. فَأَعماني

وَهَل يُرجى

إِذا رَحَلَ البُناةُ لِمَجدنا بانِ

(٤)

أَرى امرَأَةً

يُغازِلُها وَيَطلُبُها جَميعُ الخَلقْ

رَجاءَ نَوالِها خَدَشوا جَبينَ الصِّدقْ

وَلَمّا آيَسوا مِنها

أَزالوا حُسنَها عَنها

تَمادَوا في ضَلالِهِمُ وَإِفكِهِمُ

فَطاحَت مِن ثُرَيَّاها

كَما زَعَموا، وَما مِن فَرقْ

سَيَفنى ضُرُّ سِحرِهِمُ

وَيبقى حُسنُها الزّاهي

وَيَبقى عِشقُها أَبداً

وَيَبقى كَيدُهُم واهي

وَتَبقى أُمُّ دُنيانا بِحِفظِ الحَقّْ

عَلاقَة هُرمونِيَّة

ينزعج الكثيرون إذ يسمعون هذا التعبير ويزعمون أنني أحطُّ به من قدر العلاقة بين الرجل والمرأة، لكنني في الحقيقة إنما أقر حقيقة علمية واجتماعية، فميول الرجل تجاه المرأة أو العكس هي في الأصل ميول جنسية، نعم هي ليست كذلك باعتبار بشريتنا وباعتبار تواجد علاقات بشرية متباينة كعلاقة الوالد بولده والأخ بأخيه والصديق بصديقه، لكن تلك العلاقات كلها مبنية على العاطفة والعقل، بينما علاقة الرجل بالمرأة يتحكم فيها محور ثالث ثابت علميا وهو الهرمونات، هرمونات الذكورة وهرمونات الأنوثة، ومع تدرج مستوى الهرمونات تتدرج طبيعة العلاقة مع الوضع في الاعتبار الأوضاع المحيطة بالرجل والمرأة والتي تيسر أو تعسر سبل التواصل، ونستثني من هذا علاقة الولد بأمه وأخته إذ هي خاضعة للعاطفة والعقل وإلى الفطرة كذلك فهي علاقة غريزية، على عكس علاقة الرجل بأي امرأة سواهما والتي تسمى خطأ غريزية.. فالغريزة لا تجد لها مبررا علميا كما لا تستطيع إيقافها، بينما علاقة الرجل بالمرأة على عكس ذلك.

الهرمونات الجنسية، تلك التي تجعلكَ تشعر بالراحة عندما تتحدث إلى امرأة..أي امرأة، بل وتسعى إلى ذلك، وتجعلكِ تشعرين بالراحة عند التحدث إلى رجل .. أي رجل، بل وتسعين إلى ذلك، وهي التي تجعلكَ تميل إلى سماع أغنية ما بصوت امرأة لتستشعر وكأنها تغنيها لأجلكَ، وتجعلكِ تميلين إلى سماع أغنية ما بصوت رجل لتستشعري وكأنه يغنيها لأجلكِ، بل هي التي تضفي على صوت المرأة تلك النعومة التي يذوب فيها الرجال، وتضفي على صوت الرجل تلك الخشونة التي تعشقها النساء، وهي ذاتها التي إن قلت –في سن اليأس– تُفقِد المرأة رونقها فيزهد فيها الرجال.

وللهرمونات الجنسية قوة عجيبة في تسييرنا، فإذا نظرنا إلى جانب الرجل وهو الذي يهمه شكل المرأة أكثر مما يهم المرأة شكل الرجل، فإنه قد يميل إلى المرأة حتى ولو لم تعجبه شكلا، بل وحتى لو لم يعرف شكلها أصلا، وإلا فكيف يميل الأعمى لمجرد سماع صوت، وكيف يميل الرجل لمجرد استشعاره أن التي بجانبه امرأة حتى ولو لم يتحقق من ذلك. وهذا الميل لا يزعم أحد أنه لا يقع فيه أو يشعر به، بل ولا يزعم أحد أنه عند اختيار زوجته لا يكون هذا الميل على رأس أولوياته، هذا الميل الذي لا يختلف فيه غني عن فقير ولا تقي عن فاجر، ولا تحده حدود أخرى غير الذكورة والأنوثة، فتجد الغني قد يميل إلى الفقير والعكس، وتجد التقي قد يميل إلى الفاجر والعكس.

لست أزعم أن كل جوانب العلاقة بين رجل وامرأة هي محض ميول هرمونية، لكنها كذلك في أصلها ومبدأها، ثم هي تتحول إلى غير ذلك بعد المعاشرة، كما هو الحال في حب الصديق الذي تحبه بعد معاشرة وبعد أن تكون خبير به عالم بأبعاد شخصيته، فيكون صديق وأمين. هكذا تكون علاقة الرجل بالمرأة بعد الزواج لمدة طويل وبعد سن اليأس خصيصا، علاقة عِشْرَة وولاء وعرفان وصداقة، وهي علاقة على سموها غير كافية لترضى بها المرأة أو لتشبع رغبة الرجل، لذا قد يبحث الرجل عما يشبعه، ويكون سخط المرأة لفقدها أنوثتها –أو أكثرها– أكبر من سخطها لبحث الرجل عن غيرها.

فإذا كانت العلاقة بين الرجال والنساء علاقة هرمونية تنقطع بانقطاع الهرمونات أو باستئصال منابعها في الرجل والمرأة، فهي إذن محض علاقة كميائية لا أكثر، وكل تلك الكلمات العذبة والمشاعر الجياشة هي في الحقيقة خدم لتلك الهرمونات، أي أنها في الحقيقة وهم مؤقت، فنحن حين نحب أو نميل أو نرغب لا نكون في وعينا حقيقة، بل نكون تحت تأثير مواد كيميائية توجهنا في اتجاه بعينه وتشعرنا بالنشوة والرغبة، كما هو الحال في المخدرات، غير أن الهرمونات تمتاز عن المخدرات بأن مستوياتها المرتفعة والتي

توجهنا هذا الاتجاه طبيعية في الجسد، بينما في المخدرات فإن مستوياتها قد تكون منخفظة أصلا في الجسد أو منعدمة، فيكون الضرر والخارج عن المألوف أن نرفعها فوق مستواها، لذا فهي مضرة بينما الهرمونات ليست كذلك.

لذا فإن أدوم وأقوى العلاقات البشرية هي تلك العلاقات الفطرية الغريزية غير الخاضعة لأي مؤثر خارجي وهي علاقة الأمومة تليها علاقة الأبوة ثم تليها علاقة البنوة ثم علاقة الأخوة، وتلي هذه كلها العلاقات الخاضعة للعقل وموازنة المصلحة كعلاقة الخلة والصداقة بينما تلك الخاضعة لمؤثر خارجي مؤقت كميول الرجل إلى المرأة والعكس فإنها تنقطع بانقطاع أسبابها ومؤثراتها، ومن الحكمة أن تستغل هذه العلاقات المؤقتة —إذا ما وقعت من حيث لا نستطيع دفعها– في إنشاء علاقة حقيقية في أبسط أنواعها، وهي علاقة الصداقة والولاء والعرفان وطيب العشرة، تلك التي قد تدوم لأبعد مما تدوم العلاقات الهرمونية، وهذا من باب استغلال الوقائع فيما ينفع ويدوم، وعلى جميع الأطراف ألا يخجلوا أو يغضبوا من تحول علاقتهم إلى هكذا علاقة، فهي في الحقيقة العلاقة الأفضل وهي العلاقة الإنسانية التي تميزنا عن الحيوانات، بينما نحن والحيوانات مشتركون في العلاقة الهرمونية.

صَقيعْ

تلك هي المشاعر التي تتخللني على مهل وكأنها تسعى إلى احتوائي دون أن تنبهني إلى خطرها لأنفر منها أو أتصدى لها، تلك المشاعر التي تغلفني وتعزلني عن عالمي لأظل آخذ من نفسي لأعطيني وأغفل أن هناك وراء هذا الصقيع حياة ومتاع إلى حين، تلك المشاعر التي تزعم أنها تحجبني لا سخطا عليَّ بل خوفا مما قد ألقاه إذا أنا واجهت الحياة وهي إنما تريد وأدي.

صقيعُ هي أمسيات التخيل في جنبات الممكن بين تغريد الحلم وعويل الذكرى ، وصقيعُ هي خلجات قلبي، وسياطٌ هي أنَّاتُه الثكلى على ما فقد وما سيفقد دون أن أدرك الحد بين الممكن واللاممكن ودون أن أنتزعني من شرنقة الخوف من المجهول، صقيع هي التعازي التي أتشربها على مضض، وحديث المخلصين عن انفراج الهم وزوال الغم، صقيع كل ما أشعر، حتى ذكريات الشوق التي تؤجج الحشى وتشعل الحنين ما استطاعت أن تنزعه عني أو تنتزعني منه، صقيع أن يبتسم وجهي ويتسمر حسي، صقيع أنا... صقيع.

قَتلٌ مُزدَوَجْ

عندما تنسحبين بلطف خوفا على قلبي فإنك تشعرينني أكثر بمدى خسارتي، فإذا أردت الرحيل بحق فلتغرسي خنجر الحقيقة في صدري، ولا تشعريني بجمال قلبك حتى لا أقتل مرتين، إنني لست نادما على أي حرف كتبته من أجلك أو أي شعور تقلب فيه قلبي تجاهك، وأعلم أنك لم تطلبي ذلك، وإنما هو حب التغني بالماضي الذي يجعلني أتذكر أسعد لحظات حياتي.

لو عَرفتُموني ما ألِفتُموني

كثيرا ما يدعي أحدهم أنه يعرف فلانا من الناس وأنه صديقه، وهو في حقيقة الأمر إنما يعرف شيئا عنه لذا نسمع قول الشاعر:

والله لـــــو علمـــــوا قبـــــيح ســـــريرتي

لأبى الســـــلام علـــــي مـــــن يلقـــــاني

فإنه يستحيل في الأغلب الأعم أن نعرف كل شيء عن شخص مهما كانت درجة قربنا منه، والإنسان بطبعه لا يبدي إلا ما لا يستحقره الناس منه، إنها معادلة صعبة، فإننا لو اطلعنا على سريرة كل منا لربما تنافرت الأنفس ولم يسكن أحدنا إلى جوار الآخر فضلا عن أن يصادقه أو يؤاخيه، إنني لم أجد بين من يبدو عليهم الخير ما وجدته فيمن يبدو عليهم الشر، ربما لأنك لاتنتظر من هؤلاء إلا كل خير ومن أولائك إلا الشر، ولأن أهل الشر الخُلَّص لا يخفون شرهم فأنت فيهم حرُّ القرار ولأنهم يصادقون بعضهم على شرهم فلا يفزعهم أي شر كان أحدهم فيه.

هناك أناس أتيقن أنهم مهما فعلوا أو مهما علمتُ عنهم مما قد يُستَحقَّرُ أو يُنفَرُ منه فإنه لن يقل حبي لهم وتقديري إياهم قيد أُنملة، لأنني خبرتهم رجالا ذوو مباديء وعقول، وأنه مهما فعلوا بينهم وبين ربهم فإن فيهم طيبة وجمال أصله ومنبعه الدين

والتربية، وإنني ما رأيت أحد هؤلاء إلا وكان له أهل هم عون له فيما هو فيه من الخير وعلى ما هو فيه من الشر.

عود إلى العنوان، فأنا كل ذلك، ولعله لا يعرف عني مما أبغضه إلا بعض إخواني وندرة من أصدقائي، وعزائي أنهم هنا لم يبرحوا أرضي وإن غابت أجسادهم، ولولا بعض من صدقوا في صدقهم وجادوا بنصحهم لما كان لي بين ظهرانيكم مقام ولما كان للنفس في هذه الدنيا رغبة ولما ظننت أن بها لمحة من خير.

صديقك ذلك الذي لا يرحل عنك وإن بدت منك أمارات سوء بل يجعل همه إصلاحك لحب فيك وخشية عليك، لكن الصداقة تنعدم بكفر النعمة واستحلال الأذى، وكفر الدين، وأخاك ذلك الذي لا يصده عنك شيء حتى أذاك فيه وكفرك بحبه وربما كفرك بدينه، بل هو معك على غير ما تريد عسى أن ترَد إليه ردا جميلا.

بَريقْ

جميل أنك كاللؤلؤة، ولكم يقلقني بريقك، فالبريق قد يغرى الإنسان لاقتنائك وقد يغريه أيضا لسرقتك!!!

نَهداءُ المُقَدّمَة هَضباءُ المُؤَخّرَة

نهداء المقدمة هضباء المؤخرة، أو قل ما شئت في وصف من تصادفهن في الطريق ولا تعتب عليَّ فإنك ما استنكرت ذكري له إلا باستنكارك فكرك فيه، فضع أمك أو أختك أو ابنتك –اللاتي تزعم أنك عليهن تغار– موضعهن إذا كن في الطريق ثم استرسل في وصفهن فإن زعمت أن هذا مما يخالف طبيعتك فاعلم أن هذا لأنهن لا يحللن لك واعلم أنهن يحللن لغيرك وأنه على تفحصهن ووصفهن –بمثل الذي ابتدأتُ به كلامي ويزيد– لقادر وعلى اشتهائهن لسائر فانظر في نفسك هل تطيق مثل هذا عليهن؟!.

واعلم أن النخوة وصحيح الغيرة ليست في غضبك إذا رأيت أحدا يشتهيهن أو يزعجهن بقول أو فعل أو إذا سمعت أن أحدا استرسل في حسنهن فالغيرة –لعمرك– إنما تكون بدفع الأسباب لا معالجة النتائج، وإن ذا النخوة الغيور لا يرضى أن يُحَدِّثَ أحدٌ نفسه بشيء عن أهله فضلا عن أن يعلم ذلك فيسمعه أو يراه.

بل إن الغيرة الحقَّة تأبى على صاحبها أن يقبل استحسان شيء من أهله سواء كان استحسان شهوة أو استحسان غبطة إلا بعض ما يكون في الأخلاق، فانظر في نفسك وأهلك، فإن أناسا قد زاغت ضمائرهم وانتكست فِطَرُهُم عن الحق حتى صَيَّروا الحسن قبحا والقبح حسنا، فاحذر أن تكون منهم أو أن تجعل نسائك كالجواري في سوق النخاسة غير أنه لن ينالك من عَرضهن إلا ضياع النخوة والمروءة وإلا تمتع الخبثاء بأهلك على اختلاف الأفكار والسبل.

حُكْمُ المَرأَة

ربما لا يمكن للمرأة أن تحكم العالم، ولكنها بلا شك تستطيع أن تحكم قلب من يحكم العالم، فكيف إذا حَكَمَت قلبا حَكَّمها عليه.

وَعَلى مِثلي تَدورُ الدَّوائِرْ

تمر الحوادث فتقلب روحي على جمرها منتشية لما يبدو من ضعفي وقوتها وخَوَري وسطوتها وكأنني حاطبها وحَطَبُها، ولست أحسبها إلا مُيمِّمَةً شطر إهلاكي إذا هي بلغت حد الرضى في العبث، كدأبها مع كل ذي مهجة ملتاعة وكأنها إنما تجزي الصادقين عذابا والحالمين سرابا وكأنني بها ضاربة رمح المحال في كبد الرغبة فتسرق من سواد شعري ما تكسو به دهري حتى أطل الشيب عليَّ وقد بكَّر على غير هدى أو وقار.

ولعلها تغري بي طورا من النساء لم أعرفهن يعجبهن الشيب ولا يرين بي عيب فتنكأ بهن توبة هالك لا مدرك، وتفتن بهن قلب خائب لا تائب، يرفعن رايات الحسن يتصيدن بها المعلقة قلوبهم به، فلا هُنَّ يعتقن قلبا تعلق بهن على اختلاف أشكالهن وطبائعهن وعلاتهن، ولا هو يَسأمُ التعرض لنفحاتهن ولفحاتهن عسى يجد من بينهن – زعما– من تنصفه وهن يأبين عليه إلا الهلاك، إن أردن إلا الفتنة ما استطعن، وعلى مثلي تدور الدوائر.

هَل مِن سَبيلْ؟!

بين حنايا قلبك الكبير فقدت نفسي وأراك تبخلين عليَّ بها كما بخلت عليَّ بكِ، فهل لي من سبيل لها أو لك؟!.

هِبَةْ

وَأَحفُـــرُ اسمَـــكِ في شُـــطئانِ ذاكِـــرَتي

كَالطِّفْـــلِ يَرسُـــمُ لَوحـــاتٍ مِـــنَ الأَمَـــلِ

مسكين أنت يا قلبي، ما عرفتك إلا مستعبدا بالحسن فإما حسن وجه وإما حسن حرف وإما حسن أمل، وكم أوردت نفسك مواطن الأسى والشبهة ظنا منك أنك تجد فيها فطنة فطن أو إحسان محسن فما ألفيتها إلا مَهلَكة لا فكاك منها، أوقعتك أولاهن في كذبها والثانية في لعبها ثم أنك تقلبت على كل وجه وخادنت كل حسناء مشت بها الأقدار إليك علّها تصيب مرة كما خابت مرات، فسيرت قلبك على غير هدى وأنهكته سدى حتى ضاقت بك السبل.

على أنك مقدسٌ للحب عاشق للجمال أصلا لا افتعالا، غير أنك لطول اعراضك عن حقيقته ظننت أنك لست أهلا له فآيست أن يشرق قلبك بوهجه وأن تنعم روحك به، فلما أسلمت نفسك لليأس واشتد عليك البأس أبصرت فجرا يتدافع إليك ولحمق فيك تنفر وهو وراءك كأنما مدفوع بإرادة القدر ليس يمنعه شيء حتى نفسك، وكأن نفورك منه تمام القنوط والهلاك ولحاقه بك تمام الأمل والنجاة، وكأن الأيام قد علمت في نفسك خيرا وفي طلبك صدقا وفي قلبك عشقا فرثت لجواك وأعطتك مناك.

غير أنك لا ترى لمثلك حقا فلازلت تنفر من هذه الهبة السماوية والمنحة الإلهية والنفحة الملائكية بعقلك لا قلبك وبوجودك لا وجدانك وبكونك لا كينونتك، فأنت يا

مسكين معلق بها وإنما تخشى أن تكون عليها نقمة كما هي عليك نعمة، ولا يثنيك نصح ناصح عما استحكم بعقلك من زيف أثبته شيطانك لشؤم فيك، فتبا لك.. قد واتتك للنجاة فرصة فاعمل لها واذكر أنه ما اجتمعت لك أوجه الحسن الثلاثة إلا بها.

هُوَالشَّوقُ

هُـــوَ الشَّـــوقُ رَبّي في رُبـــا القَلـــبِ أَودَعـــا
فَصـــونا فُـــؤاداً هَـــدَّهُ الوَجـــدُ أَو دَعـــا
وَإِن جـــاءَكُم مِـــنّي مَقـــالٌ فَأَنصِـــتا
وَلا تُكثِـــرا فينـــا الأَقاويـــلَ وَاسمَعـــا
بَعَثـــتُ لِـــذاتِ الحُســـنِ مـــا يَجتَـــني الحَشـــا
قَصـــائِدَ تَرعـــى في الفُـــؤادِ لِيُصـــدَعا
فَجـــودي بِقَتلـــي كَيـــفَ شِـــئتِ فَـــإِنَّني
أَرى لِفُـــؤادي بَـــينَ جَفنَيـــكِ مَصـــرَعا
وَأَرضِـــيَ لَمّـــا أَن تَوَلَّـــت رِحـــالُكُم
غَـــدَت قَفـــرَةً لَمّـــا تَوارَيـــتِ بَلقَعـــا
وَشَـــيَّعتُكُم حَـــتّى تَبَسَّـــمتُ ضـــاحِكاً
مَخافَـــةَ أَن تَبكـــوا وَدارَيـــتُ أَدمُعـــا
فَلَمّـــا تَـــوارى كَوكَـــبُ الحُســـنِ وَانتَحَـــت
بِـــهِ البِيـــدُ أَشـــجانِي الأَصـــيل بِمـــا نَعـــى
نَهَرتُهُمـــا لَمّـــا تَـــذَكَّرتُ شـــادِناً
شَـــدَونَ وَهَبَّـــا في السُّـــوَيداءِ زَعزَعـــا
بَكَيـــتُ كَـــأَنَّ العَـــينَ لَم تَعـــرِفِ البُكـــا
فَفاضَـــت شِـــعابُ القَلـــبِ وَالوَجـــدُ أَهمَعـــا

وَقُلـــتُ كَفـــى يـــا عَـــينُ كُفّـــي وَأَحجِمـــي
فَكُـــل فُـــؤادٍ قَـــد يَـــرى فيـــكِ مَطمَعـــا
تَصَـــبَّرتُ حَـــتّى خـــانَني الفِكـــرُ آسِـــفاً
تَوَلَّهـــتُ وَالقَلـــبُ الـــذَّبيحُ تَوَلَّعـــا
فَكَيـــفَ يَطيـــبُ العَـــيشُ وَالحِـــبُّ راحِـــلٌ
وَلِلحُـــزنِ صُـــيِّرنا وَلِلوَجـــدِ مَرتَعـــا
فَـــلا أَنـــتُمُ أَبقَيـــتُمُ بَعـــضَ حُـــبِّكُم
وَرَحلُكُـــمُ لَمّـــا تَـــرَحَّلتُمُ.. سَـــعى!

تَضارُبْ

إن التضارب بين ما تريد وما يمكن يجعلك تؤثر البقاء على التغيير خاصة إذا كانت المجازفة بمشاعرك أو بمشاعر غيرك.

مِنَ الياسَمينِ ما قُتِلْ

"إذا أحببت شيئا، فأبقه بعيدا عنك" – **المؤلف**.

كم مررت بها.. وكلما مررت رويتها ماء حبي حتى اعتادته وحتى اعتدتها.. لكنها أبدا لم تخبرني، ظلت صامتة مستكينة في عرشها، وأنى للياسمين أن ينطق، وأنى له أن يبوح، إنه في رُقيِّهِ الشعوري لا يحتمل كلمات الحب أو عبارات الشوق، وفي رقته لا يحتمل اللمس، بل يحتاج إلى من له مثل مادته وجوهره القدسي، حتى يتسنى لكليهما أن يتحاورا حوار متحررا من قيود اللفظ والحرف، حوارا لا يفهمه سواهما، حوارا روحيا لا تنقص من قدره الكلمات ولا تقصر عن معناه اللغات، ولكن أنى لي مثل هذا، وأنا من جوهر سُفليٍّ بشري ناقص، وهي من جوهر عُلويٍّ ملائكي كامل، هيهات يلتقي جوهران لا تناسب بينها ولا شراكة.

وكثيرا ما كنت أغيب عنها متعمدًا، خشية عليها من سوء جوهري أن يمس حسن جوهرها بشيء منه، وسعيا في دفعها إلى التحدث، لعلها تخبرني بما يطيِّبُ نفسي ويدفعني إلى الإقدام، غير أنها ظلت كتومة متأملة، لا تبدي حبا أو سخطا لتأخري عنها، تتفتح زهراتها فتنثر عطرها في صدري الوغر ونفسي المهترئة، فتزيدني حماسا لكنه حماس لا يبرح النفس إلى الواقع أو الخاطر إلى العزم، ثم تموت الزهرات لَمَّا تيأس أن أحرك ساكنا، فينتفض قلبي لموتها فأزيدها رواية حتى تزهر.

أعتذر لنفسي أنني ما رأيتها.. فلعلني لو رأيتها كانت أسعفتني لغة عينها وقلَّصت الفارق بين جوهرينا لأفهم ما يجري في خاطرها البريء، والحق أنني غبي أو عاجز كما أسلفت لعجز في جوهري، والحق أني أجبَنُ من أن أجازف بحياتها معي، لقد اعتدت الخسارة، لكنها الشيء الوحيد الذي خسرته بمحض إرادتي وأنا راضٍ عن خسارته، خشية أن أصنع به خسارة جديدة، فلتعذريني أيتها الياسمينة بل فلتعذري نفسك فحتى لو بُحتِ وأطنَبتِ في الحديث لم أكن لأدنس جلالك بدنسي، فثمة أشياء في هذه الحياة أسمى من أن ندنسها بنا، وإن كان الحدث يفرض علي اعتذارا فإنني لن أعتذر عن تقاعسي أو خيبتي، بل سأعتذر عن وجودي هناك حيث علَّقتني طفولتك وحياؤك وأنوثتك، وحيث علَّقتكِ .... لا أدري حقيقة ما الذي علَّقك، لكنك حتما مخطئة، ولو عاد بي الزمان لما حركت ساكنا حيال شيء إذ أنني لا أستحق، فكيف إذا كان هذا الشيئ هو حقيقتي الوحيدة!!.

أَصدَقُ حُبْ

كم أشتاق لقولها، وكم أخشى عليك من تبعاتها، وربما جاء يوم تعلمين فيه كم أحببتك وكان من حبي ألا أدع لك إلي سبيلا.

إِذا مــــــــــا العِشـــــــــــقُ أســـــــــــقَمنا
وَأَرَّقَنــــــــــــــــــــا وآلَمنـــــــــــــــــــــــا

وكُنّـــــــــــــــــــا في رســـــــــــــــالَتِهِ
نُكَـــــــــــذِّبُ صِـــــــــــدقَ عالَمنـــــــــــا

وَنَــــــــــــــزعُمُ أَنّــــــــــــــهُ بُـــــــــــــرءٌ
وَأَنَّ القَلــــــــــــــــــبَ مُؤتَمنـــــــــــــــــــا

غَفَونــــــــــــا قَــــــــــــدرَ أُمنِيَــــــــــــةٍ
وَقُمنـــــــــــا نَلعَــــــــــــنُ الزَّمَنــــــــــــا

الشّفاءْ

آه من السقام.. هل جربت يوما أن تمرض؟!، أعلم أن كلنا يمرض، لكن هل جربت يوما أن تمرض بمرض يترك فيك أثرا وإن انقطع عنك؟، ولعلك تسألني لم قلت انقطع عنك ولم أقل شفيت منه؟، فدعني أُسِرُّ إليك بما يشغل عقلي وينهك قلبي المريض.

ما معنى الشفاء.. أهو انقطاع السبب أم تدارك الحال أم أن يعود المرء إلى صورته الأولى قبله؟، إن المفهوم الشائع للشفاء هو ذهاب المرض كلية عن الجسم، كأن تصاب بنوبة برد أو قيء أو نوع ديدان أو فطريات ثم تبرأ منه، لكن ماذا عن فايرس الكبد الوبائي "سي" وماذا عن الأمراض التي يكون أقصى أمانينا حيالها أن نوقف انتشارها لا أن نصلح ما أفسدته، وماذا لو أصيب أحدنا بحادث فبترت ساقه فيكون أقصى مناه أن يبرأ مكان البتر دون مضاعفات، هل نعتبر هذا شفاء؟.

إنني لا أسوق هذا الكلام إلا لأخلُص منه إلى ما هو أعظم، إلى مالا شفاء منه ولا برء مما يصيب النفس لا الجسم، إلى العشق وما يحدثه في أنفسنا من جراحات لا تشفى، لأن الذي يمد هذه الجراحات بآلامها وحرقتها كامن بداخلنا، يحيا بنا كما نحيا به، فلا ننساها حتى ننسى أنفسنا أو تذهل عقولنا أو نجن، ولو زعمنا أنها تلتئم يوما لبعد المسافات وتواريها في صفحات الزمن وانشغالنا بالحياة وأحداثها، فإنها ستبقى قابعة في ذكرياتنا كلما مررنا عليها أو مرت علينا أرتنا آثارها والتي تعمدنا تجاهلها لتذكرنا أنها معنا دائما وإن تصنعنا الشفاء منها!.

العُقبى لَكْ*

كم أبغض هذه الكلمة، حتى وقد كنت لا أمانع الزواج، فكيف وقد أوصدت بابه؟!، ولعل هذا ما يجعلني أُفضِّلُ العزلة خاصة إذا ما كان الاجتماع في عرس يتبادل الناس فيه مجاملة لا حقيقة، وعادة لا رغبة، وتطلق ألسنتهم ما لا يتفق وهواهم، وهذا ما جعلني أتجنب حضور خطبة ابنة خالي حتى لا يشجيني هذا وذاك بقوله: عقبالك، فأرد ممتعضا: في حياتك، ولا هو يعنيها ولا أنا، وإن عناها فما حاجتي إلى صدع رأسي وتضييق نفسي بسماعها!، ليتهم يفهمون أنني لن أفعلها وليت من يعلمون هذا يقينا يبلغونهم، ويكفوا عن معاملتي كطفل سيندم يوما ما ويثوب إلى رشده، إنهم يدفعونني دفعا إلى اتخاذ الخطأ صوابا إن كان ثمة خطأ، ليتهم يكفون عن نصحي، وإلا فإنهم يشترطون أن أكون معهم على هواهم أو أن أرحل... وسأرحل.

* هي الأصل الفصيح المقابل للكلمة العامية عقبالك.

شُموعْ

نحترق!!.. نعم نحترق بكل هم يقلب أفئدتنا ويكلب أرواحنا، نحترق بكل عاطفة أفضنا عليها من ماء حياتنا فأنقصنا منه، نحترق بكل حب صدقنا فيه وكذَّبَنا الدهر بصروفه والناس بتعاقُلِهِم والخِلُّ بزهده وتقاعسه، نحترق بكل زمان قضيناه نتوهم السعادة ونؤمل أن تحين ساعتها وكلما بعدت ازددنا بها تعلقا علها تكون قد اقتربت، نحترق بصدقنا وبحبنا وبشوقنا وبأنفسنا، وبكل حسن حسي أو معنوي، نحترق لأننا وقود الحياة ولأنا لا تسير إلا بنا، وسنظل نحترق، وليس في وسعنا أن نغضب أو أن نندم أو أن نتفضل بنورنا، لأننا مجرد.... شموع.

القَلــــــــبُ يَعشَــــــــقُ مَـــــــرَّةً
وَالعَـــــينُ تَعشَــــــقُ أَلـــــفَ مَـــــرَّه
وَالفِكـــــــــرُ يَعشَــــــــقُ عَشـــــــرَةً
لا يَجـــــــــتَمِعنَ عَلـــــــــى مَسَـــــــرَّه
كَــــــم قَـــــد نَظَمــــــتُ قَصـــــائِداً
مَوزونَـــــــــةً وَنَزَفــــــــتُ حُـــــــرَّه
لَـــــو صـــــانَ قَلــــبُكُمُ الهَـــوى
مـــــا كـــــانَ أَوَّلَ مَـــــن أَضَـــــرَّه

ما لا تَرَوْنْ

كم لامني فيك كل صديق، كم زعموا أن على عيني غشاوة من الحب وكذبوا، وأنني مفتون وصدقوا، فما أنا بالذي يرى الشيء دون مقامه أو فوق قدره، وإنما هي حقائق لا يبصرها إلا ذا نفس سامية وقلب طاهر.

ولا أزعم أنني طاهر القلب أو سامي النفس، ولا أدعي أن الفضل لي، بل لها الفضل كله، ولولا أنها مستني بطيف من روحها الفردوسية وجوهرها النفيس لما كان لمثلي أن يرتقي فيشهد الحسن في عليائه. إنما على أعينكم الغشاوة، إذ لم تنالوا من الحسن نصيبا، وإنما عميت بصيرتكم لعجز فيكم عن إدراك السمو بانحطاط هممكم.. فكفوا عني نصحكم.. إني أرى ما لا ترون!!.

المَعرِفَة وَالعِلـمْ

كثيرا ما تحيرت في كلمتي العلم والمعرفة، إذ أنه كثيرا ما أجدهما مجتمعتان تتصدران المشهد إذا أراد شخص ما أن يضفي على نفسه مصداقية في تناوله أو طرحه لقضية ما، لكنني مع هذا لم أر أحدا يتباهى بكونه عارف وإنما الجميع يتباهى بكونه عالم، والحقيقة أن هذا لا يحدث إلا لأن العلم أشرف وأرقى من المعرفة، فالعلم لا يشترط أن يسبق بجهل، بينا المعرفة لابد وأن تسبق بجهل، ولعلنا نلاحظ أنه لا يقال عن الله أنه عارف بل عالم.

والمعرفة هي إجابة سؤالنا الأزلي ما أو ماذا؟ فهي مجملة، بينما العلم هو إجابة سؤالنا الأزلي كيف ولماذا؟ فهو تفصيلي، لذا فإن المعرفة كثيرا ما تتسم بالسطحية وهي إن كانت مفيدة فإنها لا تصل بنا إلى الاطمئنان أو اليقين بينما العلم يصل بنا إلى اليقين والاطمئنان، لذا فإن المعرفة والعلم يختلطان في نفس البشر وحتى في أنفس العلماء فالعالم في شيء عارف في أشياء وجاهل في أشياء كذلك، ولذا فالصبغة الأوسع انتشارا بين البشر بل وفي ذات كل إنسان هو أنه عارف غالبا، وعالم أو جاهل أحيانا.

ومن ذلك أنك تقول عرفت فلانا ولا تقول علمت فلانا، لأنه يستحيل أن تعلم كل ما يدور بخلده أو ما ينتويه حقيقة أو أن تعلم خبايا نفسه وعقله، بل لعله يستحيل على الإنسان أن يعلم نفسه علما حقيقيا لأن الذي يشكل عليه من نفسه سواء كان ماديا أو معنويا كثير، وإن كان ثمة رابط خفي بين العلم والمعرفة فهو أن العلم يشمل المعرفة

بينما المعرفة دون العلم في الدرجة أو هي جزء منه، وهي التي تدفعنا إلى السؤال عن الكيف مما يوصلنا إلى درجة العلم، ومن قداسة هذه الكلمة "العلم" أنها لا تطلق إلى على ما وصل مرتبة اليقين، أما ما دونها فلا يعدو معارف ونظريات وتوقعات واحتمالات وهذه كلها خارجة عن الإطار الحقيقي للعلم، وإن كان البعض يلحقها به لحوق الوسائل بالغايات لكنها لا تكون من صميمه أبدا.

الشّعرُ غِذاءُ الشّعرْ

الشعر غذاء الشعر والنثر غذاء النثر، والمرء يتطبع بمن يعاشر في تعامله وبما يقرأ في كتابته، فانظر أي الشعراء تراه لك مثلا وقدوة واقرأ ديوانه مرات ومرات بل احفظه عن ظهر قلب إن أمكنك ذلك، وستجد خاطرك يبوح بمثله دون تكلف أو تعمد أو تعب، وكذا الأمر في النثر، فإني قد أكببت على كتب ابن القيم زمانا فكنت أكتب وأعرِض فيقال إنما هو ابن القيم، وقد أكببت على المعلقات وكنت أشعر وأعرض فيقال لولا بعض اللحن لحسبناها من الزمن الغابر، واعلم أنهم يقولون "الصاحب ساحب"، فانظر إلى أين تريد أن تُسحب واختر ساحبك (صاحبك).

دَيَاثَةْ

إن تعجب فاعجب لقوم يزعمون العشق وما يقتضيه ثم هم يسترسلون في وصف عشيقاتهن فيصورونهن بحيث يشتهيهن من سمع حتى لتمنيه نفسه بهن أو ليقعن في نفسه موقعهن من أنفسهم أو ليخالهن بين شِعَبِه، ثم هم يعتذرون بتسلط الشوق عليهم وضعفهم معه، وكأنهم يسألون الناس بوصفهن المعذرة لحمقهم، فيعالجون حماقة بأخرى أكبر منها، فما أبعد هؤلاء عن العشق إن هم إلا قوادا ديوثين غير أن أولائك يطلبون المال وهؤلاء يطلبون استحسان شعرهم أو نثرهم.

خَسيسْ أَمْ قِدّيسْ!

إنما مرض العاشق هروبه وانصرافه –لكثرة ما أصابه في عشقه من البلاء– إلى تقديس المادة والتقلب في الشهوات وهو حينها إنما يُجَمِّدُ حسَّهُ ويأسرُ قلبه خشية أن يلج به بحر الحب فيغرقه، ويطلق لطبيعته الحيوانية العنان فتعيث في نفسه قبل غيره فسادا فكأنما خَلَّقَ الأذى أذى والقسوة قسوة، فتندثر معانيه وتبرأ منه، ثم هو إما يموت قلبه لطول الأمد وتكالب الشهوات فلا حس ولا صدق ولا أدب ولا شعر كأنه مقطوع الخلف عقيم، وهو إذ ذاك متألم بدائه إذ هو مدرك فضل الصحة ولكنه صار خسيس الإرادة والطبع، أو تعرض له امرأة تكون لقلبه فكاكا ولحسّه حراكا ولنفسه شفاء فتعيد إليه إنسانيته وتشربه على مهل تلك المعاني التي هجرها وهجرته وتغري فيه سمو المشاعر وملائكية الحس حتى يصبح في حبه قديسا يتحرق قلبه أسفا على ما فوته كالتائب الذي خلَّف ضلالُه في قلبه لفحة فكلما ازداد صلاحا ازداد تألما وكلما ازداد قلبه بياضا ازدادت لفحته سوادا.

أَتُحِبُّـــــني بَعـــــدَ الَّـــــذي كانـــــا

أَم تَعـــــرِفُ الأَشـــــواقُ غُفرانـــــا

تَعســـــاً لَنـــــا إِن غَرَّنـــــا أَمَـــــلٌ

أَو أَعلَـــــنَ المِحبـــــوبُ عِصـــــيانا

هَـــــذا العَـــــزاءُ لِمُـــــدنَفٍ وَصِـــــبٍ

ذاقَ الأَســـــى في العِشـــــقِ أَلوانـــــا

كَـــــم وَدَّعَـــــت عَينـــــاكَ مِـــــن حُـــــزنٍ

وَاســـــتودِعَت عَينـــــايَ أَحزانـــــا

نافِذَتي

أتدثر بنافذتي، ملجأي وسجني الحبيب، حيث لا أخشى شيئا، أطالع الناس كأنني لست منهم بكل مشاعرهم وتفاعلاتهم وضحكاتهم وعويلهم، كلها مشاعر ما عدت أشعر بها بل لم أعد أرغب فيها، فلكم يزعج قلبي تقلبه فيها وتقلبها به، فما أن أرتضي الحزن والكآبة وأهيكل ذاتي على شاكلتها وأحترف التصنع والبلادة، حتى تطرق بابي أوهام السعادة فتجرني وراءها إلى سطح الأماني والأحلام التي أرى في الناس منها صور كالحقيقة حيث يعبث بقلبي تفاؤلٌ أحمق، ثم تستدركني الأحزان على حين غرة، وكأنني وهي غريق ببحر يناضل كي ينجو فيؤَمَّلُ بمدٍّ ثم يُحبَطُ بجذر.

لهذا أعشق نافذتي، لأنها تحجبني عنهم ولا تحجبهم عني، لأنني أمارس من خلالها بعض إنسانيتي بالاطمئنان عليهم والنظر فيهم ومعايشة تجاربهم والفرح لفرحهم والحزن لحزنهم، لكنها تقيني أن أكون مصدر حزني، فكل حزن يمر بي من خلالها عابر إنما هو حزن لحزن آخر لا أصل له في القلب، أما وراءها فأحزاني متأصلة فيه نابعة منه لا تنفك عنه ولا ينساها أبدا.

سَيْناءْ

(١)

بِرَغمِ الحُزنِ وَالآهاتِ

وَالتَّغفيلِ وَالأَوجاعْ

وَرَغمِ اللا

وَرَغمِ تَوَرُّطِ التاريخِ وَالأَطماعْ

وَرَغمِ مَباديءٍ حَيرى

وَتَعتيمٍ عَلى الأَوضاعْ

وَرَغمِ مَوارِدٍ ثَكلى

وَرَغمِ مَزاعِمِ الحَمقى

يُريدُ عِداكِ فيكِ متاعْ

وَأَنتِ كَدُرَّةٍ

في تاجِ مَن مَدوا إِليكِ ضياعْ

(٢)

هُناكَ الجَبهَةُ السَّمراءُ

حِصنُ الجَبهَةِ الصَّفراءْ

هُناكَ العابِثُ المختالُ

يُبدي دِمنَةً خَضراءْ

هُناكَ القَومُ يَلتَحِفونَ

ضَوءَ الشَّمسِ وَالصَّحراءْ

هُناكَ تَرى وَلَستَ تَرى

كَتاريخٍ مَضى وَدماءْ

سَحابٌ لا يُحِبُّ الماءْ

مَريضٌ لا يُريدُ دَواءْ

رَضيعٌ يَكرَهُ الأَثداءْ

وَشَعبٌ لا يُقِرُّ إِباءْ

وَقَد فُتِنَت بِها الأَعداءْ

تَمَهَّلْ.... هَذِهِ سَيناءْ؟!!

أَيكونُ الجَمالُ وَهمًا !

ما لنا لا نرى اجتماع الناس في معنى الجمال وحقيقته، وما لهم وإن بدى منهم اتفاق في عامة معناه لم يبد منهم إلا الاختلاف في خصائصه وتحقيقه. أيكون الجمال وهما نتوهمه!!، إذ كل قيس بليلاه مجنون، وكل عين ترى ما يناسب جوهرها ويَعلَقُ به، وعلى اختلاف الحَكَم يختلف الحُكْم، فإن غرَّنا جمال زهدوا فيه وإن غرهم جمال زهدنا فيه، يذكرني هذا قول الشاعر:

لام العـــــواذل في ســـــوداء فاحمـــــة

كأنهـــــا في ســـــواد القلـــــب تمثـــــال

وهـــــام بالخـــــال أقـــــوام ومـــــا علمـــــوا

أني أهـــــيم بشـــــخص كلـــــه خـــــال

هذا وهمه وتلك فتنته، فكيف وهمك وفتنتك؟!.

جَوهَرُ الهوى

وأُحِبُّهـــــــــــــا وتُحِبُّـــــــــــــــنِي

ويُحِـــــــــبُّ ناقَتهـــــــا بَعِـــــــيرِي

ـ المنخل اليشكري

كم كان المنخل مسكينا.. أما بلغ من حبه لها وحبها له إلا أن أحب بعيره ناقتها!!، فإنك ما بلغت الحب إذن يابن عامر، ولا بلغت جوهر الهوى، فلقد بلغ مني الحب أن أحب قلمي مداد حسنها الذي تمده به، وأحب دفتري تزييني وريقاته بذكرها، حتى أصبح موقعها مني موقع الوزن من القصيد، لا يقوم إلا به. يتوق لها الإنس والجن والحيوان والجماد، إذا ما خَطَتْ في بستان تمايلت زهوره كأنها تنتظر أن تُسر إليها بسر الجمال، وتشرئب أعناقها علَّه ينالها من فيض حسنها نصيب، حتى نسمات الهواء تقصدها عامدة لتتطيب بأنفاسها، بل ويبعث القمر شعاعه الفضي عليها ليزداد بها بريقا على بريق، إذا مشت فكأنها مركز الكون وكل ما فيه حولها يطوف وإليها يرغب ومن حزنها يرهب، فإنه إذا حزنت أظلم وإذا ابتسمت أشرق، لا ليل فيه ولا نهار إلا بها، ولا سعد فيه ولا شقاء إلا منها، ولا حسن إلا ما أقبلت عليه ولا قبيح إلا ما أعرضت عنه، هي الأصل وما سواها فرع، في الغيّ بها رشد وفي الرشد بسواها غيّ، وهي مني أنا، وأنا منها هي.

رَكائِزُ الإيمانْ وَمَنابِعُ الطُّغيانْ

إن المتأمل في أحوال البشر والشرائع الإلهية ليجد ركائز تطوف حولها الدنيا ولا تخرج عنها، ومهما حاول الإنسان التملص منها لم يستطع، فالصادق الذي يؤمن بها ويعتقد، والكاذب الذي ينكرها ويظن أنه بإنكاره لها خارج عنها وهي متحكمة فيه لا يخرج عنها حتى في تكذيبه بها، تلك الركائز هي في ذات الله وقد جعل الله للدنيا منها حظا بما فيها من جماد وحياة، فهي مسيرة بما وهبها، فقوة الوجود والكينونة إنما هي منه وما يتفرع عنها وينتج منها إنما هو خاضع له إذ هو أوجدها ابتداءً، وما كان الإيمان إلا بردها كلها إليه اعتقادا وفعلا، ولكن الإنسان ظلوم كفّار، ينازع أخاه وربما نازع نفسه بل وقد يفيض بالظلم فينازع ربه فيما هو هبة ومنة منه، تلك الركائز التي ينبني عليها كل شيء هي الحُكمُ والعِلمُ والعَقلُ، وفي كل منها طغى الإنسان حتى نازع الله في حُكمِهِ وعلمِهِ وتدبيره.

الشَّكْ!

"*أنا أفكر فأنا إذن موجود*" **ـ ديكارت**

عزيزي ديكارت،

لا أستطيع إلا موافقتك فالتفكير حالة حادثة لا تكون إلا متعلقة بشيء حادث، فمادمت أدركت أنك تفكر فأنت موجود وأنت المحدث لهذا التفكير والمدرك له، لكن أنّى لك أن تتيقن أنك أنت أنت، وأنى لك أن تعرف أن كينونتك ووجودك اللذان أثبتهما بمنطقك هذا هما الحقيقة، معذرة يا عزيزي ففلسفتك الشكّية سطحية نسبيا، ولعلك لم تتعمق بها كفاية لأنك أبيت على نفسك أن تواجه ما قد يفوق إدراكك أو ما قد يجعل لعقلك حدا فيفسد عليك مبدأك.

أنت موجود نعم أتفق معك لكن أين أنت وما أنت وكيف أنت، لعلك محض حلم تدركه وأنت في مكان آخر أو زمان آخر، لعل ما تستشعر لمسه وحقيقته وتجعله مبدأ وقانونا وواقعا ما هو إلا اختلاط أفكار وسعة خيال، ولعل كل تلك السعادة والآلام كسعادتنا وآلامنا من حلم جميل أو كابوس بغيض، أو كاستشعارنا لذة طبق من التفاح تناولناه في حلمنا حتى بعد أن نستيقظ، ولعلنا نستيقظ بعد زمن، لعلنا محض تجربة علمية في عالم متقدم لا نعدوا فيه بكل ما نراه من كون عظيم حولنا حجم معمل في عالمنا إذا ما قارناه بمن هو فوقه، لعلنا شيء صغير إذا ما قورن بما يفوقه كالبكتريا في عالمنا الذي نعيشه.

لعل فلسفتك الشكية مزروعة فيك من قبل أحدهم بل وأحدهم يدفعك إلى القول بها على رضى منك كالتوجيه بالإيحاء، فمن أدراك أنك أنت كما ترى أنت، ومن أكد لك أنك لست في مكان آخر أو زمان آخر أو أنك محض إرادة سيادية تدفعك إلى ما تظن نفسك راغب فيه ولكنها في الحقيقة رغبة صاحب التجربة، ليتك تعرفت إلى عالم الروبوتات المتطورة التي تعمل بالمحاكاة والمَنطَقة لتعرف ما أعنيه، فنحن —بني البشر– إذا ما قارنا سابقينا بنا ثم حاولنا مقارنتنا بما قد يصل إليه لاحقينا وجدنا أنفسنا فقراء في دنيا العلم.

وها نحن صنعنا روبوتات مفكرة ومنطقية تتخذ قرارات وأفعال معينة، ندركها ونتوقعها مسبقا أو قد تخرج عن مدى توقعنا لغفلتنا وتقصيرنا في التوقع ليس إلا، لكنها في نطاق ما أعطيناه لها، وهي في ذات الوقت لا تدرك أنها محض آلات خاضعة حتى في تفكيرها وطريقته إلى ما زرعناه فيها لأنها مجرد آلات، وأنت كذلك مجرد إنسان.

أما إذا كنت تعني أنك موجود لكنك لا تقر لنفسك كينونة أو صفة وجودية محددة، فدعني أنبهك إلى أنك قد تكون محض فكرة في ذاكرتي أنا، فمنطقك الشّكّي منطق متفرد لا يجمع اثنين تحت غطائه بل هو خاص بكل آخذ به، فلعلك مجرد خاطرة أو فكرة في عقلي أو لعلك أضغاث أحلام تتخللني في سباتي الطويل، ولعلني بينما أحدثك وأمنطق كلامي وأشكك في شكك لعلني أدافع ما اختلقه عقلي منك بما يراه عقلي مني، فأنت بهذا جزء من عقلي.

وبمبدأ الشك ذاته أشك في تحليلك واستنتاجك وفي موافقتي إياك فيه، إذ لا يمكن اثبات وجودك بهذه المعادلة السطحية التي أغفلت أكثرها في طياتها، فهي لا تثبت وحيدة بمعزل عن العالم بل لعلها تكون الخطوة الأخيرة – إن شئت اليقين- في مرحلة الإثبات تلك.

أما الإثباتات التي تسبقها فهي إثبات أن ثمة (أنا) المفكر والتي استنتجت منها الـ (أنا) الموجود، ولعلك تستطيع، إذا وضعت هذه المعادلة في شكلها الرياضي –مع فرض صحتها-، أن تصل إلى شكلها النهائي والذي هو وحده الثابت، والذي هو:

أنا أفكر => أنا موجود، وبحذف أنا من الجانبين تصبح، أفكر => موجود، ومنها فالصورة المثالية لهذه المعادلة هي (هناك فكر إذن هناك مفكر) ولكنك لا تصل منها إلى طبيعة المفكر، ولِتصل إلى معادلتك تحتاج إلى إثبات أن الفكر حادث منك حتى تثبت أنك أنت المفكر ومن ثم يكون الوجود حادث فيك.

وبهذا يكون الإثبات مركب من ثلاث مراحل:

فكر => مفكر

مفكر => أنا مفكر

أنا مفكر => أنا موجود

والمشكلة الحقيقة تكمن في إثبات الخطوة الثانية من هذه الخطوات والذي أظنه مستحيل، على الأقل، حتى الآن.

عزيزي ديكارت، اعذرني لكنني أشك في شكك ومنهجيته ومصداقيته، وأشك أنك موجود، لكنني أثق تمام الثقة من النتائج النهائية لفرضك ولمعادلتك وهي أن الله موجود، فكل اعتراضاتي تلك لم تكن إلا على تسلسل إثباتك، لكن وجود الفكر أيا كان مصدره ومهما استرسلت في ذكر الاحتمالات الممكنه كما فعلتُ هو دليل على وجود كائن مفكر قاصر في قدرته الذهنية، غير ملم بكل شيء بل غير قادر على تحديد الحقائق والأوهام على الدوام بل قد يغفل عن تمييز اليقظة والأحلام، ومثل هذا الكائن العاجز على قدرته لابد له من موجد ومسير، ولابد له من إله.

تُقيَة

وأقبلت على جناح من السوف والليت، وما برحت الآلام أعتاب البيت، أشمر اللهو عن ساعد الجد وأرقب فيك التشبيه والضد، على حافة الأمس وجرف اليوم وجوف الغد، تصلبت الآمال بالآلام وتقلبت الأيام بالأوهام وبيننا خيط من الحرص أخشاه ولا أراه، وأخاف أن يشملنا القدر بحُكمه فتتيه غايتي فيك وأضلّ وأن يقضي بغير الرضا فأزلّ.

فلا تعتبي إن رأيتِني لابسا ثوب التقية، فإنما هو قلب واحد لا اثنان، وقد صرَّفته الصروف وشيَّبته الحوادث وارتضته بنات الدهر لها سكناً لا تبرحه إلى غيره حتى لم يبق فيه إلا رمق واحد أدَّخره للتي يَقْبَلُ بها القدر لتكون لي نفسي، فإن كنتِ أنتِ فهنيئا لي وإن كانت الأخرى يكون لي فيما تبقي من قلبي عزاءِ لأخطب به ودَّ من أكون لها نفسها.

نَبَضاتْ

دقـــــات قلـــــب المـــــرء قائلـــــة لـــــه

إن الحيـــــــاة دقـــــــائق وثـــــــواني

ـ أحمد شوقي

أشعر أن جزءا من روحي ينقبض مع كل نبضة من نبضات قلبي، وكأنما هو ميقاتي وهي وحدته، وكلما أسرع في نبضه شعرت كأنه يستعجل الموت لي، لهذا أحب العدو لعله يدنيني من أجلي.

ولو أن الناس استبدلوا مواقيتهم بدقات قلوبهم لأدركوا للأشياء قيمة ما أدركوها من قبل، ولعلموا أن النبضة إذا انقضت لا ترجع، ولاتَّسع أفقهم لأبعاد الحياة الحقيقية، ولقدروا أنفسهم وغيرهم حق قدرهم، كيف لا وهم ينفقون دقات قلوبهم في هذه الحياة لأجل أنفسهم وأحبائهم أو لقضاء مصالح تستحق أن تنفق فيها دقات القلوب.

جرب يوما ألا تتعامل بالدقائق والثواني بل بالنبضات، جرب أن تعرف قيمتها أو تخيل أنك تقول لصديق سألتقيك بعد ألف نبضة، هل ستعذر نفسك إذا تأخرت عن موعدك؟، هل ستعذر نفسك إذا جعلته يهدر من حياته ثلاثة آلاف نبضة أو يزيد في انتظارك؟، جرب أن تخبر أحدهم أن اجتماعكما سيستمر لمدة خمسة آلاف نبضة،

أتراك ستقضيها في نقاش تافه أم ستسعى جاهدا لقضائها فيما ينفك وينفعه، هل تدرك كم من النبضات ننفق في هراء الحياة من حولنا؟.

جرب أن تحمل وقتك في صدرك لا في يدك، جرب أن تستشعر انصراف عمرك عنك مع كل نبضة، جرب أن تدرك أن كل نبضة تدنيك أكثر من نهايتك، جرب أن تستشعر ضيق الوقت، وستدرك أن عليك استغلال كل نبضة من نبضاتك في انجاز شيء تحبه أو فيما يفيدك أو يفيد غيرك، جرب فلعلك تنجح... أما أنا ففشلت.

الحَقيقَة..

إنما هي أجزاء يرى كل جزء منها واحد، فإذا أردت أن تراها كاملة عليك أن تجمع جميع الأجزاء بأن تسمع لكل الأشخاص، سواء اتفقت معهم أو لم تتفق، بل أنك إذا جمعت جميع الأجزاء لتراها كاملة فإنك قد تراها كما يحلو لك ويراها غيرك كما يحلو له، لا كما هي حقيقة!، فتبقى الحقيقة توصيفا للرؤية لا الواقع.

وكم تأملت الكون من حولنا ولعلني أختصره في الألوان إننا نسمي ظاهرات طبيعية تعطي الأشياء صبغة معينة ألوانا ثم ميزنا بينها بما أسميناه أحمر وأصفر وأزرق.. إلخ، ونعلم أن البعض أعمى والبعض مصاب بعمى الألوان فلا يرون الألوان على حقيقتها أو لا يرونها مطلقا، فما أدرانا أن ما نراه هو الحقيقة؟.

لقد جعلنا الشائع العام بيننا هو الحقيقة حسبما نرى، جعلناه حقيقتنا وأساسنا الذي نبني عليه ونميز به، ولكننا لسنا على يقين أنه الحقيقة المطلقة، كما يفخر أصحاب البشرة البيضاء بلونهم ويعتقدون أنهم العنصر الأفضل ويفخر أصحاب البشرة الداكنة بلونهم ويعتقدون أنه الأفضل، كل ينزع إلى طبيعته، وكذا في كل أمر ذاتي كان أو خارجي، عقلي كان أو حسي، فطري كان أو مكتسب، كُلٌّ ينتصر لما جُبِلَ عليه أو توصَّل إليه وكُلٌّ يدعوا إلى حقيقته التي يراها ويدعي أنها الحقيقة المطلقة، لكن الحقيقة ستبقى أبدا محض رأي وميل نفسي.

الجَبَلْ

(١)

جَبَلٌ بِأَرضي

يَقسِمُ الدُّنيا إِلى نِصفَينْ

نِصفٌ يُخافُ ويُتَّقى

نِصفٌ يَخافُ ويَتَّقي

وَالكُلُّ يَسجُدُ لِلجَبَلْ

وَالبَعضُ يَزعُمُ أَنَّهُ ثَبتٌ

وَذا كَذِبٌ وَمَينْ

(٢)

جَبَلٌ وَتَسكُنُهُ الأَفاعي حُرَّةً

فَتَهابُها الفِئرانُ

تَهرُبُ مِن جَحيمِ ضَميرِها المأفونِ

تَنعَمُ في جَحيمِ الجانِبَينْ

وَيُعانِقُ الجَبَلُ الأَشَمُّ سَحابَ وَهمٍ

يُمطِرُ الأَوجاعَ هَمّاً

بَينَ إِقبالٍ وَبَينْ

إِذ كُلَّما رَحَلَتْ مَصائِبُهُ

وَأَمَّلَ أَهلُهُ النَّعماءَ في أَكنافِهِ

.... شَوقاً أَتَينْ

الفَخّ

"يخيل إلي أنه ليس أروع في الحياة من أن تكون هوايتك هي حرفتك!"

ـ د.زكريا ابراهيم

كم منا يحترف هوايته وكم منا يهوى حرفته؟، قليل جدا!، لقد ابتلينا في حياتنا بمحطات أو "مطبات" هيكلتنا كيفما أرادت، فدخل في تكويننا مجموعة من الإرادات الخارجية الفردية والمجتمعية وقليل من الذاتية، ولعل المشكلة الحقيقية وراء هذه "المطبات" أن معظمها يكون في المرحلة الأساسية لتكوين الذات والتنشئة فتتحطم كثير من أحلامنا وهواياتنا على تلك "المطبات" فتحولنا إلى كائنات مشوهة تفتعل الانتماء للنظام المجتمعي الخارجي تكسُّبا لحسن السير والسلوك، وتحمل مع ذلك في باطنها الرغبة والشعور الحقيقي للانتماء للذات وتخادن هوى النفس على حين غفلة من المتربصين.

لكنها لا تقوى على المجاهرة بهذه "التفاهات" التي لا تتناسب مع متطلبات العصر أو الواقع كما يزعمون، وإن واتتك بعض الشجاعة لتبدي ما كنت تخفيه حملوا هذا منك محمل الترفيه عن النفس، وإن أنت أبديت رغبة حقيقية فيه قالوا لعله إجهاد من ضغوط الحياة ونصحوك بالاستراحة قليلا وربما "تغيير الجو"، وإن أنت أصررت رموك بالجنون وهددوا وتوعدوا بأنك ستفسد حياتك وأنه لا صواب إلا ما يعتقدونه ولا حقيقة إلا التي أحقوها، وأوصوك ألا تخرج عن هذا النظام الذي خطوه لك وخطه لهم الأجداد من قبل، ولعمري إن هذه هي عبادة الأجداد وعبادة الأُطُر المجتمعية، والمضحك المحزن في

الأمر أن أغلب العباقرة –ولا أعني العلماء فقط بل العباقرة في كل فن وعلم– هم أولئك الذين خرجوا على تلك الأطر المجتمعية وخلقوا لأنفسهم مجتمعا خاصا انتهجوا فيه ما يحبون ولم يصبهم التشتت فأبدعوا، لقد وقعنا في الفخ ☺، ولعله لا مناص لنا منه، لكن السؤال... هل سنُبقي على هذا الفخ لنوقع فيه أبناءنا؟!.

سُوءُ استِغلالْ . .

ما أكثر ما نستغل الهبات التي نرفل فيها في تحطيم أنفسنا لا في تقويمها وإسعادها، كم استخدمنا آذاننا في التجسس والاستماع للغيبة ولِما نستطيش له غضبا، وكم بحثنا بأعيننا عن الأخطاء وزكينا نيران الحقد فينا، كم شغلنا عقولنا بتوافه الأمور وبقول فلان وفعل فلان وبما كان من الممكن أن يكون من مصلحة لنتحسر على فواتها وما من الممكن أن يكون من المفسدة لنرتعد منها، حتى أثقلنا كاهلنا وعشنا تعساء. إن هذه الهبات ما هي إلا وسائل، فكيفما استخدمناها أعطتنا، إن شغلناها بالخير كانت نعمة وإن شغلناها بغيره كانت نقمة.

الجُزءُ والكُلّ

"ابدأ من حيث انتهى الآخرون" **- مجهول**

إن التمرد الدائم على الماضي ومعطياته كفيل بأن يبقينا حيث نحن ما دمنا أحياء، وأن يمحونا من التاريخ إذا ما متنا، والبدء في كل مرة من نقطة الصفر في بحثنا عن الحقيقة يفصلنا عن تراثنا وعن تاريخنا وعن إنسانيتنا، فالإنسانية بشتى اتجاهاتها وأفكارها مترابطة يُكَمِّل بعضها بعضا وإن اختلفت، ولا يسع الإنسان أن ينفصل عن ماضيه وإلا انفصل عن إنسانيته، ولكن قد يسعه إعادة النظر في بعض الأمور بما لا يخرج به عن إطار الفكر الإنساني الشامل والعام، فمهمة المعرفة والتفكير وسر الوجود مهمة بشرية ينبغي على كل منا أن يتحمل نصيبه منها ويبذل وسعه فيه، وأن يستمع لغيره وأن يُسمِعَ غيره حتى تتكامل وتتناسب الاستنتاجات لنصل إلى الحقيقة أو ما نظنه حقيقة.

وكيف لنا أن نصل إلى الحقيقة كاملة إذا نحن تنكرنا لجزء منها، فإننا لم نأت طفرة إلى هذا الكون بل نحن جزء من منظومة الإنسانية والتي بدورها جزء من المنظومة الكونية، فنحن متأثرون بماضينا مؤثرون في حاضرنا ومستقبلنا، بل ومتأثرون بمن حولنا، فكيف لنا أن نحيِّد أنفسنا عما هو جزء منا ونحن جزء منه؟.

وليس في مقدور شخص واحد أن يصل إلى الحقيقة لأن تلك الحقيقة التي سيزعم أنه توصل إليها لن تعدو الجزء الخاص به والذي لا يكاد يُذكُرْ إذا ما استشعر حاجته لكل جزء توصل إليه غيره، فالإنسانية ليست صورة مستنسخة في كل منا يحياها ليتفكر فيها

ويتعرف عليها، بل هي صورة كبرى مقسمة فيما بيننا، ومحال أن يمتلك الجزء القدرة على رؤية الكل إلا إذا تعاونت الأجزاء جميعا ليرى الكل نفسه فيدركه كل جزء.

أما الذين يعيدون التفكير في كل شيء من نقطة الصفر ويتنكرون للماضي وللتاريخ والتراث بحجة التجديد والإبداع والحيادية والتخلص من عبودية الآخر فهؤلاء يتناسون أنهم سيصبحون جزءا من الماضي كذلك، وسيتنكر لهم غيرهم ولن يكونوا في تاريخ الإنسانية إلا كالآخذ منها والمزري عليها ولن يضيفوا شيئا إليها، لأن أول ما ظنوا أنهم يضيفونه هو التنكر فهم أولى به من غيرهم، وهذه هي عبودية النفس، فقد وقعوا فيما هربوا منه.

وإن كانوا قد حطموا أصنام القدماء في زعمهم فإن لديهم دافع بشري طبيعي لا غضاضة فيه –عندنا– أن يصبحوا أصناما فكرية يطوف بها الذين من بعدهم، إذ الإنسان بطبيعته يسعى إلى إثراء البشرية بما يتوصل إليه فيسعى إلى صياغته وتعريف الحاضر والمستقبل به، هذا مع حبه لنفسه وإيمانه بصدقه فهو يسعى لأن يُعرَف بما اكتشفه وأن يُحفظ له الجميل وأن يكون متبوعا، وكان الأولى بهؤلاء أن يمحوا أنفسهم من ساحة التاريخ وأن يجدوا لأنفسهم مغارات ليترهبنوا فيها بمعزل عن البشرية إن كانوا صادقين.

إِلَيكَ أَنا*

أكتب إليك يا ترجمان الإخاء وقرة الأصدقاء وبهجة الندماء وأوصل الأخلاء، وأنا على حال تحار فيه المدارك وتتيه دونه المسالك، وقد بلغتني رسالتك فَرَوَت في النفس معنى كاد يذبل فيها لكثر ما نأيت بها عن البشر إذ لا أكون فيهم إلا بِشَر، فقطعت على نفسي عهدا ألا أخالطهم حتى أتبين موضع الخلل إذ بلغ أمري مني مبلغاً جلل، وحجتي أن ما أنا فيه لا يخلو أن يكون منهم أو مني، فإن كان منهم فعزلتي تلمسٌ للشفاء وطلبٌ للدواء حتى أبلغ من نفسي مبلغ من لا يضره تغير الحال وعسر المحال وحتى أعلم من وفيم وكيف ومتى وأين أنا، وإن كان مني فإنها إحسان إليهم حتى لا يصيبهم من جانبي ملال أو يظن بي دلال، ولألا أكون متلفا لمن ظن بي الصلاح أو مخذلا لمن ظن بي الفلاح.

غير أني لما مُتِّعَت عيناي بحلو مقالك وآنسَ وحشتي طيبُ وصالك، جعلت عزلتي عن الكل إلاك، إذ أنت مني أنا، فلا ينتقض عهدي بحديثي إلى نفسي، وإنك أنا لولا كثير سوء بي وكثير خير بك، ولربما يجتمع في النفس النقيضان، فيُرغَبُ في الحسن وعن السيء، وإني كلما أوشكت نفسي على طلب الموت علّها تجد فيه ما يمنع الحيرة ذكرتك فعلمت أن أسوء ما فيه فرقتنا فرغبت عنه، وعلمت أني وإن تباعدت الأحداق فإني على أمل اللقاء باق، غير أنني ما عدت أعرف أي شيء مني فسد، العقل أم النفس أم

* رسالة إلى صديق هو نفسي ولعلني نفسه.

الهوى أم الفكر، ولا أدري لأي من تلك المعاني حدودا ولا أدرك لها وجودا، فأنا على نفسي بلاء، وليتني أعرف أي جزء مني ابتلي به الآخر لأقتص منه، ولو أنه قدر أن عرفته فكيف أقتص من شيء هو مني وأنا منه وكيف أنزعه أولا من كل أجزائي حتى إذا اقتصصت منه أيقنت ألا يقع قصاصي فيهم كما يقع فيه؟.

ما عاد يبلغ عقلي مبلغ الشعر، حتى أنني كلما قرأت شيئا من شعر كتبته تحيرت، كيف لمثلي أن يكتب مثل هذا!، لعل شيطاني قد مات ولو أنه قد مكنني مما تمكن فيه لكنت رثيته، لكنه مثلي سفيه أفسد نفسه بطول أمله وأفسدته أنا بقصر أملي، أقرأ كثيرا لكنني لا أستشعر فائدة كما كنت أستعشر، وكنت إذا قرأت شيئا كأنه تداخلني فأصبح مني وأصبحت منه، حتى أنني أنطق بقرينه أو بسيده، وقد يغلبني الفكر والتأمل حينا فكأنني عدم في عدم لا أعلم لي ولا لشيء حولي مبتدأ ولا منتهى، كأنني سراب كلما رأيتُ مني بادرة أمل أسرعت إليها فإذا وراءها بادرة أخرى وأخرى وأخرى، فأنا في سعيي غير منقطع ولا منتفع، وقد أستشعر حينا أنني روح وُجِدَت من قبلُ في زمن نالت فيه أسباب الرضى والعقل حتى لم تعد تجد ما تطلبه، ولما أتت إلى زمان كزماننا وفي صورة كصورتي أصابها الخزي حتى ما اسطاعت أن ترفع رأسا كما كانت فآثرت أن تبقى على ذكرى مجد بلغته حين كانت من الزمان موضع القلب من الإنسان.

أدرك أنك تدرك أنني أهذي، وكيف لك ألا تدرك وأنت أنا، وكل ما أقوله إنما يقع منك موقع التكرار على يقين، ولعلني أبقى على ما أنا عليه حتى ينتظم عقلي أو ينفصم وفي كلٍ خير، فإنه إن انتظم تعجبت مما أنا فيه الآن وشق علي أن أدرك كُنهُ سفاهتي في

حيني هذا كما يشق عليَّ الآن أن أدرك كنه شاعريتي حين نظمت شعري، وإن انفصم لم أدرك ما كنت فيه أولا ولا آخرا ولم أدرك ما أنا فيه حينها، ولم أعبأ بشيء ولا أصابني هم ولا غم، فأنعم بالجنون أو العقل، وبئس العيش عيش الحُمق.

يا أنا، عهدي بك تريد رؤيتي كما هو عهدي بنفسي تريد رؤيتك غير أنني أشفق عليك أن ترى كيف صرتُ، إذ أن المرء مهما وُصِفَ له وظن أنه بالغ مبلغ المعاين المتيقن فإنه ما بلغ ولن يبلغ، فليس من رأى كمن سمع، وإني أعيذك أن ترى ويكفيك ما تسمع، وإنك لو نظرت لما رأيت غير الذي يرى الناس ولما أبصرت شرا فالأعضاء سلمية وأما الروح فسقيمة، والروح لا تُبصَر وإنما تُشعَر، فكفاك الله شرا ابتلاني به ولا أطلعك عليه إلا حيث لا يأخذ في قلبك أو فكرك مكانا.

وددت لو كان في الإمكان قول أبلغ أو أطول مما كان، لكنني في كل حرف أكتبه أنتزع نفسي وأغالبها عليه وأدفع عقلي دفعا إليه، فإن العقل ما عاد يسعفني وإن الحرف ما عادي ينصفني، وإنني في العلم مجهول غريب، وفي الأدب لقيط ربيب، كالباكي على طلل لا يعرف أهله وإنما يتمثل سيرة الشعراء ويبكي كما بكوا، وهو كاذب مفتعل ومقلد منتحل، أبكي على ما ظننتُ يوما، وقد خاب ظني بل كذب، وإن بعض الظن إثم، وبعض هذا الإثم أن تظن الخير فيمن لا خير فيه، فحسب ما أنت فيه ودعك مما أنا فيه، والسلام.

مُجونْ

نُواسيُّ المزاج.. نعم لكنه مزاج شعري لا فعلي، لا أدري لماذا أميل إلى المجون إذا اعتل مزاجي، ولكنني على ثقة أن أكثرنا يميل إلى المجون إذا اعتل مزاجه، وربما إذا صح أيضا، بل وربما كان مجونا فعليا لا شعريا، غير أن مجوننا يبقى سرا نخشى أن نُطلع عليه الناس ظنا منا أن كتمانه قد يجعله شيئا عارضا غير متأصل فينا، لكنه في ذاتنا إذ هو جزء من تركيبتنا المعقدة، غير أن الشاعر على خلاف غيره فإن ما ينسجه شعرا من خيالات ومجون يعز عليه أن يظل حبيس عقله أو دفتره إذ هو زينة أينما جُعِل، ولو شئنا أن نمثله لمثلناه بالتاج على رأس عاهرة حسناء فلا هو يرفع منها ولا هي تحط منه، لكنك تظل راغبا في النظر إليها لترى التاج كما أنه لا يمكنك التنكر لحسنها بحجة عهرها.

لا أدري حقيقة أكنا نعذر أبا نواس إذا علمنا أن مجونه لم يبرح شعره إلى الواقع، وأن كل ما كتبه من خيالات ومجونيات وخمريات كان محض افتعال شعري يسبق به القديم ويجاري به الحديث، كما هو حاله فيما كتب في الزهد والورع والذي ما كتبه إلا مبارزة لأبي العتاهية ليريه قدره وفضله وتفوقه الشعري عليه وإن اختلفت الاتجاهات، أو كحال كثير من الشعراء الذين وصفوا الخمر وأبدعوا ولكنهم لم يشربوها بل لعلهم يبغضونها وينكرون على شاربها كالبارودي وكبعض شعراء الصوفية الذين كتبوا في الخمريات، أو كحال المتغزلين على غير عشق بل وبغير امرأة إلا امرأة في خيالهم لم تبرحه، فهل كنا نعذره؟.

ستظل أبياتنا التي لم نعرضها سواء اتفق معنا الناس فيها أو اختلفوا أشواكا تؤرق مضجعنا، لأننا حقيقة نود أن نرى الإعجاب بل وأحيانا الامتعاض منها، فلا يخلو الشعر من حُسنٍ في لفظه أو معناه أو تركيبه أونظمه، فإن نحن نزعنا عن المجونيات ألق المعنى وبعض ألق اللفظ فإنه يتبقى لها بعضه الآخر كما يتبقى لها ألق التركيب والنظم، هذا مع أن ثمة لطفا في بناء المعنى لا يخفى على عارف بالشعر لا يختلط بأصل المعنى بل بفكرة الطرح أو صياغة المعنى وهذه الْمُلَحْ تحول دون نزع ألق المعنى بالكلية، لذا فإن المجونيات وإن رأيناها خارجة عن حدود الذوق العام فإن هذا لا يعني أنها عُدِمَت كل الحسن، وما دام بها حسن فلا سبيل لصد النفس عنها وبالأخص نفس الشاعر.

وأذكر أنه لما دخل مثقالُ على أبي تمام وقد عمل شعراً لم يسمع مثقالُ أحسن منه، وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرها، وعلم أبو تمام أن مثقالاً قد وقف على البيت، فقال مثقال: لو أسقطت هذا البيت!، فضحك أبو تمام وقال له: أتراك أعلم بهذا مني؟، إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة، كلهم أديب جميل متقدم، وفيهم واحد قبيح متخلف، فهو يعرف أمره ويرى مكانه، ولا يشتهي أن يموت، ولهذه العلة وقع مثل هذا في أشعار الناس.

فلعلني أطرح مجونياتي يوما ما، على أن أصدِّرها بتحذير لمن تسول له نفسه الاطلاع عليها، حتى أُعذَرَ وَقد أَنذَرتُ، غير أنني أعلم أن الممنوع مرغوب، وأن هناك من سيطلع عليها دون أن أعلم أو يعلم غيره ذلك، كما أعلم أن ثمة أناس سيطلعون عليها للتشنيع، فإن كانوا يتبعون السقطات فها أنا أقر أمامهم أنَّ في خيالي الشعري بعض

المجون فليشنعوا، ولا حاجة لهم في الاطلاع بحثا عن دليل، فلا أدل على المرء من اعترافه، إلا أن يكون بهم شوق إلى المجون فيجعلون التشنيع حجتهم للاطلاع عليه.

وما الفرق بين أن تعرف وأن تقول؟!، كم من لفظ نستحي من قوله ونسمعه صباح مساء لكنه لا يقع منا موقع استغراب لأننا ندركه جيدا، من منا لا يعلم المجون ومتعلقاته ومن منا لا يعرف الذكر والأنثى وما يصير ما بين أول نظرة وأول طفل، ومن منا لم يفعل في خياله ما لن يفعله في واقعه، ومن منا لم يُلَمِّح؟!، وكم منا لم يُصَرِّح، فإن شئنا التشنيع فلنشنع على الجميع، فإن المجون إن صح شينه فإنه مما يشين راغبه وطالبه وقائله وسامعه وفاعله، ولقد قال لي حكيم يوما: "ليس ثمة أدب إلا عند من لا نشوة عنده، فالكرسي مؤدَّب لأنه لا يدرك المجون والطاولة مؤدبة لأنها لا تدركه، ولن ترى الكرسي يوما يطلب الطاولة ولا الطاولة يوما تطلب الكرسي أما نحن فكلنا يطلُبُ ويُطلَب"، فلا تلمني إن منعك افتعال الأدب ففي قرارة نفسك ستجده.

إنني تلك التركيبة المعقدة من الهدى والضلال، والحق والباطل، والشكر والكفر، والأمل واليأس، والأدب والمجون، ومن منا ليس كذلك؟!، فمن شاء فليقبل ومن شاء فليدبر.

أَخطاؤُنَا

"إن ما نعتقد أنه هو أكبر أخطاء الماضي ما هو إلا أفضل ما يمكننا الحصول عليه"[٣]

ـ أحمد سراج الدين

لا أظن ذلك، ولعله يكون صحيحا إذا كنت تمتثل قولهم *"الخيرة فيما اختاره الله"*، غير أن الخيرية نسبية فليس كل ما تراه خيرا يراه غيرك كذلك، وليس كل ما تظنه خيرا هو خير حقا، كما أن ثمة خير معجل وآخر مؤجل، فبأي مقياس وعلى أي اعتبار أقمت عبارتك يا صديقي؟!، ولو كانت عبارتك "ما هو إلا أفضل ما أمكننا الحصول عليه" لشفعت لك عندي قليلا، غير أنها على كلٍ غير جازمة، كما أنه مادام هناك اختيارية في حياتنا فلابد أن تتراقص اختياراتنا على سُلَّمِ الأفضلية بين صاعدة درجاته وهابطة دركاته، إلا لو كنت تظن أن ليس ثمة شر وأن ليس ثمة أخطاء فعلية لنا.

لست بصدد الحديث عن المعنى الحقيقي للخير ولا كيف يمكن أن نصادفه ولا بصدد الحديث عن خبايا الحوادث التي قد تبدو شرا لأول وهلة غير أنها تحمل في ثناياها الخير ولا العكس، لكنني بصدد الحديث عن نفسي، وعن تلك الأشياء التي لا نملك حيالها اختيارا حقيقيا إلا في جزئيات منها، فماذا لو كانت أكبر أخطائك أنك.. أنت؟، ولعله يتبادر إلى عقلك أني ناقم على القدر أو رافض لنفسي التي ليس لي في تكوينها يد، وأنا

[٣] – على الهامش – أحمد حمدي سراج الدين.

إنما أعني أن كل ما تعلمته وجربته وعايشته وكل انطباعاتك واختياراتك كلها أخطاء في نظرك، هل ستظن حينها أنك أفضل ما يمكنك الحصول عليه، وددت لو صدق كلامك ووددت لو أني آمنت به إذا لما أحزنني ما أنا فيه، ولما أعياني فكر ولا أضناني سهر، ولا احتوتني عزلة.

حسنات الماضي يا عزيزي وسيئاته تدرك مستقبلنا وتساهم فيه فإذا ظنناها أفضل ما يمكننا الحصول عليه إذن سنركن إليها وسنبقى حيث نحن وسنسلم لها زمام الحياة وسنكف عن السعي للأفضل، وهل يدفع الإنسان إلى الأفضل إلا الندم وتأنيب الضمير إذا أخطأ والرغبة فيما يفوق الأفضل إذا أصاب، إن أخطاء الماضي هي زلات لم يكن ينبغي علينا إتيانها وقد كان في وسعنا ألا نخطيء لكننا أخطأنا، وأيا كان السبب وأيا كانت المبررات والأعذار فإنه ثمة شيء أفضل متاح، بل إنه ثمة شيء أفضل حتى فيما لم نخطيء فيه، أما تلك الأفعال التي اتخذنا فيها أفضل خيار فهي أندر ما تكون وسنجدها في حياتنا كالبدر في الليل الحالك.

وإنك لتذكرني –يا عزيزي– ببيتي شعر قلتهما على حين تيه مني أقول في الأول:

إذا كـــانَ كَتمـــانَ حُبُّـــكِ خَـــيرٌ
فـــإلا إلى الخَـــيرِ أمشـــي وَفيـــهِ

وأقول في الثاني:

إذا كـــانَ حُـــبّي بَعـــضُ ذَنـــبي فَكُلُّنـــا
ذُنـوبٌ وَهَـل في النّـاسِ مَـن لَـيسَ يُـذنِبُ

هذا لأننا إذا غشيتنا غشاوة العاطفة وسلكنا غمار الحب ينقلب إحساسنا وإدراكنا حتى نمشي على رؤوسنا فنستلذ العذاب ونطمع في السراب وتنقلب أقيستنا وموازيننا، ولا نرى لفرط تعلقنا ورغبتنا ولو في أقل القليل –على حين تَمَنُّعِ حبيباتنا أو على حين يحول الدهر بيننا– غضاضة فيما لو حُكِّمنا فيه على حياد لنعتناه بالحمق والسفه والإذلال.

انتِماءْ

أي لفظ محيِّر أنت؟!، إنك لكثرة ما نجد لك من تفاسير نكاد نظن أنك إنما اصطنَعَتكَ عقولنا، فلا وجود لك إلا فيها، وإننا لواهمون إن ظننا أن لك كيان حقيقي نتلمسه متى شئنا بل أنت خليط من كيانات متباينة لا نستطيع نزع أنفسنا منها كما لا نستطيع قصرك على كيان منها دون الآخر، إننا ننتمي إلى أعراق مختلفة وأوطان مختلفة وأجناس مختلفة ولغات ختلفة وأديان مختلفة، وثقافات مختلفة وأفكار مختلفة وسياسات مختلفة ومهن مختلفة وهوايات مختلفة ووراء كل انتماء من هذه الانتماءات انتماءات فرعية كثيرة.. أرأيت كم أنك معقد وكم من الصعب أن نزعم انتماءنا لشيء واحد أو حتى بضعة أشياء فقط، أرأيت كم تكون أحيانا سخيفا ومفرقا بيننا؟.

إنك كالبصمة التي لا يمكن أن تتشابه في شخصين، وما ذاك إلا لأنك تتألف من مجموعة من الكيانات التي يمكن أن تجرى بينها عمليات تبادلية لنحصل على عدد لا نهائي من الانتماءات والتي يصعب أن يتشابه فيها اثنان، وللأسف فإنه وإن غلب لدينا انتماء على آخر فإنه لا يبقى وحيدا بل ينازعه غيره تبعا للموقف الذي نعاصره، والانتماء الوحيد الذي يجمعنا جميعا هو الإنسانية ذلك الانتماء الأولي الأصيل السامي الذي بانعدامه تنعدم كل الانتماءات الأخرى، والذي عفا عليه الزمن وأصبح آخر ما نفكر فيه عندما نختلف، حتى أن بعضنا لا يخجل أن يخرج الآخرين منه لمجرد اختلافهم في انتماء هو دونه ومعوَّل عليه، وليس اخراجه لهم منه مجرد إخراج لفظ أو نعت بسباب

ونحوه، بل إخراج فعل بظلم وبطش وتعذيب وامتهان واضطهاد وتشنيع بكذب وزور وبهتان، حتى لقد يحنو هذا الصفيق على جرو كلب ليس بينه وبينه أي انتماء ولا تلج الشفقة قلبه على بني جنسه لمجرد اختلافهم معه في انتماء لا يخرجهم من حيز الإنسانية.

ولا أخفيك سرا فإنني وإن كنت مغتاظًا منك إلا أن انعدامك شيء سخيف، وهذا ما يجعلني أتحدث إليك إذ أنني ما عدت أشعرك في أي شيء وكأنني في هذه الدنيا مفردا لا إنسان ولا غير ذلك، لا شك أن الحيوانات والنباتات بل والجمادات قانعة بانتمائها سعيدة به، فالانتماء والكينونة أفضل بكثير من العدم، ولعل هذا ما يجعلني متوقف في كل شيء ولا أستشعر أنني ندٌّ لأي شيء، ماذا عساي أن أقول... لا شيء.

لا شَيءْ

"*ما لا يدرك جله لا يترك كله*" **ـ مجهول**

ربما كان قولا حكيما، لكنني لا أمتثله، وإنما أمتثل قول شكسبير "*تكون أو لا تكون، تلك هي المشكلة*"، وحقا إنها مشكلة أن تنحصر اختياراتك بين أن تكون كُلًّا أولا تكون شيئا على الإطلاق.

ماذا أكون على التحقيق... دعني أرى... نعم. أنا صيدلي أكاديميا، لكنني لست بصيدلي حقا وإن كنت أحترم هذه المهنة وأحب ممارستها لكنني لا أحبها بالفعل، ماذا أيضا.. نعم أنا شويعير، فقد سلكت درب الشعر منذ صغري وربما بدت مني فلتات شعرية هي الشذوذ لا القاعدة كما أن ملكتي الشعرية تختفي في أغلب الوقت حتى أظنها ماتت، قد أكون كاتبا... نعم أنا أكتب لكن ليس كل من كتب استحق لقب كاتب كما ليس كل من تناول الأدب بكتابة صار أديبا، ماذا تبقى... لا شيء مهم.

ولأنني إما أن أكون بحق أو لا أكون ولأنه ما ولم ولن يبلغ الكمال أحد ولأنني مولع بالكمال وبجلد الذات ولأنني أستشعر ضيق العمر وسعة العلوم والفنون ولأنني مختلط المزاج متشعب الفكر متعدد الميول متحير الإرادة فإنه يستحيل أن أبلغ في أي شيء.. أي شيء، وكثيراً ما تدفعني هذه النتيجة إلى ترك كل شيء، لكنَّ شيئا بداخلي يجتذبني إلى كل شيء، فأسعى بغير انتظام أو نظام، أسعى لأنه يستحيل العيش في الفراغ فلا

بأس من خداع النفس بشيء، ولكنني لا أتناسى أن من المحال أن أكون شيئا في كل شيء.

أدرك أن أول ما سيتبادر إلى ذهنك القول السائر "*تعلم كل شيء عن شيء وتعلم شيء عن كل شيء*"، ولكن أين أنت من عقدة الكمال التي تعتريني وأين أنت من تقلب الأمزجة وتحول الميول وتشتت الإرادة، وكيف وعندي أن الشيء يتساوى واللاشيء إذا لم يكن كل شيء... اعذرني أيها الطبيب فأنا.. لا شيء.

الدِّينْ وَالفَلسَفَةْ

"إن قليلا من الفلسفة يجنح بالعقل إلى الإلحاد، ولكن التعمق في الفلسفة خليق بأن يعود بالمرء إلى الدين" **ـ فرانسيس بيكون.**

لم يأت دين إلا وتحولت بعده الأمة التي وُجِدَ فيها إلى حال أفضل مما كانت عليه قبلها، فلابد مع هذا أن يكون الدين خير، والمشكلة حقيقة ليست فيه بل في بعض أتباعه وبعدهم عن المصدر الأول والنبع الصافي، ولكن دلالات الأديان موجودة وربما يكون الفلاسفة على حق عندما ذهبوا إلى أن الإنسان في وسعه أن يتبين معاني الحق والخير والجمال بالفكر والتأمل والبحث والتجربة، لكن الإنسان إن تبين فإنما يتبين الأمر على الإجمال لا التفصيل.

والحقُّ أن الذي يعلم التفصيل وتفصيل التفصيل بلا بحث أو نظر هو مُوجِدُ هذا التفصيل وهذا الكون، ولذا فإن هدايته للناس بنعمة الدين هي أقرب وأيسر السبل التي تعينهم إلى معرفة الحق والخير والجمال، على أن الدين لا يضع هذه الحقائق أمامهم للحفظ بل للفهم والتفكر والتدبر في حدود المعرفة والسبل المتاحة لهم —والتي هي بلا شك غير مطلقة بل محدودة بغض النظر عن اختلاف البشر في تقدير تلك الحدود– لتكون عند تطبيقها عن إيمان وقناعة، ولذا جعل الإله الناس مختلفين في قبولهم للأديان.

والنفس تنزع إلى الحق وإن كابرت فربما تتخذ الجمال أو الفكر أو الحق –كما تراه– دينا، ولكنها لو أرادت أن تجمعها جميعا فلابد أن تأخذ ممن أوجدها ونظمها فهو

الأعلم بحقائقها وخباياها، غير أنه مهما أوضح لنا الدين خبايا ما هو مستتر عنا فلابد وأن يترك لنا شيئا مبهما مجهولا على تفصيله لا إجماله، وذلك أنه لو علَّمنا الدين كل ما في الوجود على التفصيل لما كان ثمة مزية أو فارق في العلم بين الإنسان وبين الإله، ولو جَعَلَنا الإله قادرين مثله على كل شيء لكنا آلهة معه، وأحمق هو من يزعم أنه إله وهو من البشر فهو نفسه أدل دليل على عجزه.

وإن كان البعض يزعم أن الدين هو أفيون الشعوب فالحقيقة أن كل فكر من فلسفة أو دين يحمل في طياته إيمان –متمثل في التصديق والانقياد– ونشوة، هما السبب في تحوله إلى أفيون عند أولئك الذين يسيئون فهمه أو استخدامه، وهذا حال كل الفلسفات والأفكار البشرية من اشتراكية وديمقراطية وحرية فقد أصبحت كل منها أفيون لكثير من معتنقيها، ثم هم يرمون الدين وحده بهذه التهمة، ولو أنهم أنصفوا لرأوا في أنفسهم المتهم الأول، ولفرقوا بين الفكرة من حيث هي مادة أولية وبين ما يطرأ عليها من تغيرات عند تطبيقها أو اعتناقها وما يكتنفها من عوامل اجتماعية وثقافية وسياسية وشخصية تنحرف بها عن صفائها الأولي.

والحقيقة أنه لا يمكن أن نحمِّل الأديان نتيجة إساءة استخدامها من قبل أتباعها، فلا يمكننا أن نحمل المسيحية نتيجة الحروب الصليبية وتلك المذابح التي تعرض لها المسلمون، ولذا لا يذكر التاريخ –المسيحي على وجه الخصوص– أن صلاح الدين قد انتقم من الصليبين بعد أن تغلب عليهم وأخرجهم من بيت المقدس، ولا يمكننا كذلك تحميل المسيحية نتيجة إبادة أتباع الديانة المانوية، كما لا يمكننا تحميل الإسلام نتيجة أحداث

الحادي عشر من سبتمبر، فالمشكلة الحقيقية تكمن في أتباع الأديان سواء في إخلاصهم مع سوء فهمهم أو في تعمدهم استغلال الدين لمصالح شخصية.

أما الفلسفة فهي في حقيقتها –أو في جزء كبير منها– محاولة للتوصل إلى الفضائل التي منها يتكون الدين وبها يأتي، فقد نشأت في عصور لم تعرف الرسالات أو عاصرت بعض الرسالات غير ملزَمة بها بحكم أن كل نبي بعث إلى قومه خاصة، فبحث الحكماء في تلك العصور عن سر الوجود وعن معاني الحق والجمال والأخلاق، ولو قرأنا للفلاسفة الأُوَلْ لتكشف لنا من صياغتهم لمعاني الحق والعدل والجمال والكشف الإلهي والنزعات الصوفية –خاصة عند سقراط وأفلاطون– أنهم كانوا يكملون العجز المعرفي والعقائدي عندهم حيال الله وما وراء الحواس بعقولهم المحضة فهم يسعون للعلم والمعرفة بما يورث الاعتقاد أي أنهم يسعون إلى دين لم تكن لهم عليه دلالة مباشرة من نبي مرسل أو كتاب منزل، ولهذا فإنني كلما قرأت في الفلسفة ازددت معرفة بسبب بعث الله الأنبياء وإنزال الكتب.

لن أتعجب إذا كان مصير سقراط وأفلاطون وأرسطو أساتذة ومؤسسي الفلسفة الجنة وكان مصير أتباعهم من أبناء الديانات السماوية التي تلتْهم النار، إذ أنهم كانوا باحثين في وقت عم فيه الجهل، فلو أنهم كانوا ممن لم يبعث فيهم رسول فلعلهم من أهل الفترة، ولعلهم يدخلون الجنة، لكن أتباعهم الذين مَنَّ الله عليهم بدين يكفيهم كل تلك التساؤلات والفلسفة –ولا أقول يكفيهم التفكير العلمي والبحث، وإنما أعني في جانب الميتافيزيقا والجوانب الخُلُقية والسلوكية– ثم هم صدفوا عنه أو أخذوا منه ما يوافق أقوال

الأوائل –الذين هم في حكم المعرفة اليقينية من الدين جهالا فيما خالفه– وتركوا ما عداه أو هم حرفوا ما لم يوافقهم ادعاءا منهم لنصرة دينهم أو شموليته، هؤلاء الأتباع المحرفين أو المنكرين لعل مصيرهم النار لقيام الحجة عليهم.

فالفلسفة في حد ذاتها غير متعارضة مع الدين، وإنما كانت طريقتهم للتوصل إلى الدين بعقولهم المحضة، ولما كان ثمة مصدر أكثر وثوقا عند أصحاب الديانات كان الأوجب أن تستمر الفلسفة بتفكيرها العقلي المنطقي فيما يتعلق بالعلوم البرهانية بينما تتوقف فيما يتعلق بالإلهيات والغيبيات، لأن مجرد الإيمان يعني التصديق، وإذا كنت شاكا فلا مجال لأن تكون مصدقا، ومحاولة الوصول لإثبات لا يعني أبدا عدم الإيمان فقد يكون غرضه زيادة اليقين، لكن لو أنك عجزت عن هذا الإثبات أو أن ثمة ما أثبت –بمنطقك– عكسه فإذا حملك هذا على الشك فهو يعني انتفاء الإيمان، والحقيقة أنه لا مجال للتعارض بين الدين والعلم، إذ أن الديانات لم تتطرق لمسائل علمية خاضعة للبراهين، بينما المشكلة تكمن في من يدعون الفلسفة والذين يحاولون إقحام العلم في الدين، أو بمعنى آخر يحاولون الاستدلال بالعلم على أمور لا تخضع للبرهان العلمي، فالدين يحترم العلم ويعرف له حدوده بينما العلم –من خلال منطقهم وطريقتهم– لا يحترم الدين ولا يعرف حدوده، هذا لعلمهم أن الدين يتناول ما لا سبيل لإيجاد حقائق عقلية محضة لإثباته وبالتالي فالعقل وحده عاجز عن تناوله مادام عاجز عن الإحاطة به.

فِراسَة

يعرف العاقل الأمر قبل أن يحدث، فإذا حدث استوى في معرفته العاقل والأحمق.

عقلٌ ونفسْ

وكأنني تركيبة من عنصرين.. عقل ونفس، وليس أقسى من أن يُسيء شطرُكَ إلى شطرِكَ، أن يسيء عقلك إلى نفسك فيوردها الأسى والتعاسة، ويتلذذ في نموه وتحليله وبحثه وتجربته بتعريضها لكل عاصفة هوجاء تمر به أو يمر بها، وكأنها حقل تجارب لا يجد صلاحه ولا تطوره ولا فائدته ولا يدرك معاني وبواعث الحزن واللوعة والأسى إلا من خلالها.

يظل عقلنا متَّقِدًا ونظل نبدع ونتميز ولكن نفوسنا ملتاعة تائهة في جحيم رغباته وتطلعاته، ولا يتم حسن ما ينبعث منه إلا إذا تم بؤس ما يحمله على الانبعاث، فأصدق وأوفق خواطرنا وتحليلاتنا وحِكَمِنا التي استخلصناها من الحياة أتتنا على حين فراق ووداع، سواء كان وداع حبيب هجرْ أو صديق غدرْ أو أم ماتتْ أو حلم تهدَّم.

إنها دكتاتورية العقل البشري الذي لا يجد كماله إلا باستعباد غيره، وغيره –على التحقيق– هو كل ما يناقضه مما يحمل عاطفة أو شعور، تلك الأشياء التي تتناقض –كما يزعم الفلاسفة– مع "العقل الخالص"[٤] الذي لا يخضع إلى أي منها، ويبلغ بنا وبه العدوان عليها كل مبلغ حتى أننا نستكثر عليها في خضم ما يلفنا من حوادث

٤– العقل الخالص هو مصطلح وضعه الفلاسفة للتعبير عن التفكير العقلي المجرد من كل عاطفة المبني على الإثباتات والبراهين والذي بدوره يرفض الإيمان بأي شيء لم يتم إثباته من خلال التجربة العلمية، وللفيلسوف الألماني "إمانويل كانت" كتابا يسمى "نقد العقل الخالص".

وتقلبات أن نلقي لها بالا، أو أن نجلس معها ساعة نتحدث إليها لنشعرها بأن لها قيمة أو حتى أنها جزء منا، هكذا –وهكذا فقط– تكون لنا حيوات ..لكن لسنا بأحياء.

ولعل هذا ما يجعلني مفتونا بالتصوف الروحي أو بالرهبنة الجزئية والعزلة الدورية التي لا تحجبنا تماما عن المجتمع لكنها تتيح لنا الفرصة لنعيد للنفس قدرها ولنوازن بينها وبين العقل، حيث تتردد حياتنا بينهما أو هي تجمعهما بحيث لا نهمل النفس بدعوى التعقل فنغدوا كما يقولون "حيوانات مفكرة" أو نهمل العقل بدعوى التعاطف فنغدوا "بشرا أغبياء".

أَسيرْ

ما أكثر العوائق والعقبات التي تصادفنا فتتيبس لها أنفُسُنا وكأنها غدت صخرًا صلدًا يجثم على صدورنا ويثقل أنفاسَنا ويشل إرادتنا أو قل يأسرها يروضها فتميل إلى السكون خشية التكرار وتمتنع عن التجربة خشية النتيجة وتقف لا تدري أفي وقوفها الخير أم أنها تخشى وهماً كبَّلها ولا حقيقة له.

ولا سبيل لها لإدراك الحقائق إلا بالتجربة ولا سبيل إلى التجربة مادامت تخشى عواقبها، ويمضي الزمان ببني آدم يتنقلون من حال إلى حال وتبقى أنفسنا الأسيرة جامدة فيما تبدو باردة فيما تُظَنّ غير أنها تتقلب بأكثر مما تتحمله نفسٌ وتمورُ كالحمم تَصهرُ هياكلنا لكنها أبدا لا تترك أثرًا في غيرنا لأننا آثرنا أن نكون ضحيتنا الوحيدة والدائمة.

تَصَوُّرْ

الحقيقة أنه لا حقيقة سوى ما نتصوره حقيقة، كما أن الآخر يتصور أن الحقيقة هي ما لا نتصوره حقيقة، نحن إذن نصنع المقياس الذي ندرك به ما نتصوره حقائق، وينبغي لاختلافنا ابتداءًا –من جهة التنشئة والمجتمع والبيئة والدين مشتملة على ما تتم زراعته في عقولنا وأنفسنا من أفكار سواء من قبل الأهل أو الأصدقاء أو المعارف أو من خلال مطالعة الكتب المختلفة أو التلفاز– أن تختلف مقاييسنا، وبالتالي أن تختلف تصوراتنا للحقيقة، ولكننا رغم هذا نُصِرُّ على ما نتصوره، ونسعى لإثباته بما يصل إلينا مما قد يخدم هذا التصور سواء كانت معرفتنا به أصيلة أو مفتعلة.

كم صادفت من شخص يسعى جاهدا لإثبات شيء هو محض خيال أو ادعاء –في تصوري– غير أنه لم يفطن إليه لأنه لم يدركه منذ بدايته أو أنه غير ملمٍّ بأصله وتاريخه، وكم صادفت من شخص فأوضحت له كل شيء لكنه أصر على ادعائه لأنه ببساطة على يقين أنه غير ملم بكل شيء وأنني إنما تغلبت على ما دفعه لاعتناق تلك الفكرة لكنني حتما لم أتغب على الفكرة ذاتها بل هو يرفض التخلي عنها رغم انتفاء ما جعله يعتنقها لأنه ببساطة يجزم أن ثمة أمور أخرى تؤيد اعتناق تلك الفكرة لكنه يجهلها ليس إلا، وجهله بها لا يجعلها غير موجودة ولا يزعزع يقينه.. إننا نستعبد أنفسنا.

حتى أنا.. فيما أكتبه هنا تصورت أمرًا وأسعى إلى توضيحه والذي تبعًا لما ذكرته لا يعدو كونه تصورا خاصًا لا يخلو من احتمال الخطأ والصواب، لكن أنَّى لي أن أتيقن من

أي شيء.. فلعلي أتصور أننا نتصور.. الخلاصة لا شيء حقيقي حتى لعلي لا أكون أكتب هذا الكلام أصلًا.

انحِرافْ

عجيب أمرنا! .. إننا إذا حذرنا أحدهم من خطأ ثم فعله فإننا نغضب لأنه فعل الخطأ، وإذا حذرنا من نحب من خطأ ثم فعله فإننا نغضب لأنه لم يثق في حرصنا عليه وفي رأينا أو لأنه تجاهلنا أكثر ما نغضب لأنه فعل الخطأ، حقا.. المشاعر تصيبنا بالانحراف.

تَشَوُّه

"قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ «قَالَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ»" [٥] **– حديث شريف.**

لا شيء حقيقي.. فكيفما نرى الناس نكون واهمين.. بل لعلنا كيفما نرى أنفسنا نكون واهمين.. فكيف بنا والناس!. إنَّ عجز الإنسان عن فهم نفسه يجعله في حيرة حيال ما ينبغي عليه اعتباره عنه، أهو طيب أم خبيث. ولأن كل منا ما هو إلا مجموعة من الحوادث والأعراض المختلفة وربما المتناقضة، يسعى الصادق مع نفسه إلى تصنيفها تصنيفا دقيقا ليقف على كوامنها حتى يسعه تطويرها إلى الأفضل –في نظره– سواء كان فضلا حقيقيا أو مزعوما.

هكذا صورتنا إذن.. مفتعلة ومشوهة حتى مع أنفسنا، لكن شتان بين تشوه الرؤية وتشوه الهيئة، حيث يسعنا معالجة تشوه الهيئة إذا كانت الرؤية نقية بينما لا يسعنا معالجتها إذا كانت الرؤية مشوهة، وهنا تكمن قوة الصدق مع النفس للحصول على رؤية صادقة ومن ثم معالجة الهيئة، هذا فيما يتعلق بذواتنا، أما فيما يتعلق بغيرنا فثمة حرج ولبس يقع فيه الناس حيث لا يميزون بين تشويه الصورة –الهيئة– وتوضيح الرؤية، فتشويه الصورة يعني إظهارها على غير حقيقتها كأن تدعي على أحدهم بما ليس فيه،

[٥] – رواه أبو داود في سننه، وصححه الألباني.

فعملك فيه متعلق بالصورة أو بالهدف الثاني –وهو المرئي–، بيما توضيح الرؤية يعني إظهار الصورة على حقيقتها سواء كانت طيبة أو خبيثة، وعملك فيه متعلق بالرؤية ذاتها أو بالهدف الأول –وهو الرائي– وحسب، وما يتعلق بها مما يضفي عليها واقعية ومصداقية ووضوحا.

لست أسعى لتبرير أحدها، وإنما لإيضاح الفارق وتبين الحد، فكثيرون يخلطون بينهما ويزعمون أنك بتعريفك الناس حقيقة فلان من الناس فإنك تشوه صورته وأنت إنما تجلي عن رؤيتهم الغبار، وليس ذنبك أن بعضهم يهوى العيش في عماء بزعم أنه لا يريد أن تتغير نفسه تجاه فلان، ولو صدق مع نفسه لأدرك أنه لن يتغير إلا إذا كان ثمة ما يستدعي هذا التغير وسيشكر لمن أنار بصيرته، أما إن لم يكن ثمة ما يستدعيه فستكون رؤيته أوضح وحسب.

وهذا التوضيح ليس مطلق الزمان وإلا أصبح مجرد إشهار للعداء وتشهيرا بالناس وهو محض الغيبة المنكرة، وإنما هو متعلق –حين تبريره– بأضيق الحالات كالزواج أو المشكلات المتشعبة التي لا تملك فيها الانتصار لنفسك إلا بتوضيح رؤية غيرك تجاه غيره، والأمر في كلٍ متعلق بالحقائق والدلائل، وإلا كان محض ادعاء، ويمكنك القفز وراء هذه الإشكالية بالمواجهة إذا سنحت لك الفرصة، إلا أن نتائجها قد تكون كارثية حتى وإن كنت محقا، فلا تسدي النصح إلا لمن يستحق.

عُقُوقْ

طفل مشرد، قد مضغته الدنيا بأضراسها حتى لم يبق منه إلا خيالا يتكيء على وهم، قد اكتسى جسده على استحياء خرقة بالية متسخة، واسمرَّت بشرته لا لأنه لا يجد ما يستره من شمس الصيف فحسب بل لأنه لا يجد مكانا يغتسل فيه ليزيح عن جسده تلك الطبقات المتأصلة من الأوساخ، ما أن تمر بجواره حتى تزكمك رائحته المنتنة، قد تجده يقلب في المخلفات باحثا عن شيء يأكله أو يلهو به بين أترابه.

ياللقذارة.. عفوا، ليست تلك قذارته بل قذارتي وقذارتك وقذارة هذا المجتمع الذي أنتج هذه الحالة التي يعيشها هذا الطفل، إنني أشعر بالاشمئزاز كلما نظرت إليه لا منه وإنما منّا، لأنني أدرك تماما أن هذا هو شعوره نحوي ونحو مجتمعه، فالحقيقة التي يدركها هي أنه لا يملك حيلة يدفع بها ما هو فيه وأنه لم يكن سببا فيه كذلك، هو يدرك تماما أن مجتمعه هو القذر وأنه يدعو إلى الاشمئزاز أكثر منه، فاشمئزازنا منه أو اشمئزازه هو نفسه مما هو فيه محصور في شخصه، بينما اشمئزازه هو من مجتمعه عظيم بقدر كل طفل يعاني مما يعانيه، ولا أظننا –مهما ادعينا علما أو فهما أو تقديرا، ومهما بالغ علماؤنا في الاجتماع والسلوك في دراسة ما هو فيه، ومهما أبدع أدباؤنا في تمثيل حاله ووصف دواخل شعوره– لا أظننا سنصل أو نشعر ولو بجزء مما يشعر به هذا المسكين الذي لن يكف عن الاشمئزاز منا، ولعمري إن هذا لهو العقوق بعينه.

ولو أن مجتمعه أكرمه وبرَّه لكان به كريما وبارا، بيد أنه قد عُقَّ كما يَعُقُّ الابنَ أبوه، فأورثه ذلك عقوق في نفسه لمجتمعه، فهو ساخط على كل بادرة حسن وجمال ونظام مادامت بمعزل عنه ومادام يرى نفسه منبوذا فيها، ومادام يرى الناس فيه الصورة المباينة لكل جمال ونظام، ولذا يسعى جاهدا لتشويه كل ما يستحسنه غيره وما يراه مصدر فخره إذ هو ذاته مصدر شعوره بالتعاسة والدناءة، إنه يسعى بكد ليجعل مجتمعه أسوأ لأن مجتمع لم يسع لجعله أفضل، وهكذا الدنيا إما أن تكون إيجابيا مؤثرا أو سلبيا متأثرا، أرأيت.. نحن من يدعوا للاشمئزاز بسلبيتنا وهو معجب بنفسه لإيجابيته، ماذا عساي أن أقول.. عقوق.

نِصفُ وَهـمْ

"قد تنبني أفعالنا على فكرة خاطئة لكن نتائجها قد تحتمل بعض النفع، وليس هذا مبررا للخطأ، لكنه حسن استغلال للوقائع" **– المؤلف.**

يتصفح الشبكة المعلوماتية فيصادفه موضوع قد عنونه كاتبه بـ "عبادة المريض"، فاستل قلمه وشرع يكتب عن العبادة، ووجوب صرفها لله وحده، وأن صرفها لغيره شرك مناقض للتوحيد، وأن فاعله لا يخرج عن كونه عالم أو جاهل، فإن كان عالما فقد كفر وإن كان جاهلا فهو معذور بجهله لكنه ليس معذور في جهله، ثم شرع يكتب عن وجوب تعلم العلم وفضله وفائدته وأنه النور الذي يهتدي به الناس إلى الحق.

كتب وكتب وأحسن وأجاد وما أن انتهى حتى تنفس الصعداء وقد احتسب ما فعله طاعة لله ودفاعا عن دينه ثم حانت منه التفاتة إلى مقال الكاتب وشعر أن ثمة شيء خارج عن المألوف، فاقترب وأمعن النظر فإذا العنوان "عيادة المريض"، فما كان منه إلا أن انفجر ضاحكا من نفسه ومن تعجله، ثم حذف من السياق كل ما له دلالة على مسببات الكتابة، ثم نشر مقاله كنصيحة في وجوب التوحيد وفضل العلم.

إِنسانْ

لا أحبذ هنا التعريف بنفسي تعريفا جامدا في كلمات قاصرة كشاعر أو كاتب كما اعتدت، إذ أن كلا من هذه الكلمات هي حالات وجزئيات لا تنفك عني ولكنها أيضا لا تطغى على بعضها لأتسم بأحدها دون الآخر أو حتى بها معا، كما أنني أراها تعاريف أقل شمولا ونضجا في كل لحظة عن التي تليها، لذا فإنني أنا أنا، كيفما تروني في كل ما أكتبه، أشطح بين العقل والجنون، وبين الحق والباطل، وبين الشعر والنثر وبين الطيبة والخُبث.

إن إنسانا لم تشترك في تكوينه كل ممارسات البشر من خير وشر وحق وباطل وظلم وعدل، لهو جدير بأن ينتزع منه هذا اللقب السامي المنحط في ذات الوقت، فلا بد لكل إنسان من أن يجتمع في نفسه الخير والشر حتى ولو كانت في صورة خاطرة لا تنتقل إلى حيز التنفيذ، وأنا إنسان.. بين هذا وذاك.

ومشكلتي أنني كثيرا ما أحاول الخروج من هذه النزعة الإنسانية البشرية إلى السمو الملائكي، أو إلى الانحطاط الشيطاني، فما أفلحت في هذا أو ذاك، يبدو أنه ليس اختيارا أن تكون إنسانا ولكن الاختيار في أن تغلب عليك إحدى النزعتين، فتكون ملاك يحمل في نفسه لفحة شيطانية أو شيطانا يحمل في نفسه نفحة ملائكية، وأظنني الأخرى.

الوساوس !

محمد أبو الفتوح غنيم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى – يناير ٢٠١٢ "رقمية"

تصميم الغلاف:

محمد أبو الفتوح غنيم

e-mail: m.abulfotoh@gmail.com

لطفا، اترك تعقيبك ورؤيتك حول الكتاب على صفحته في موقع Goodreads:

http://www.goodreads.com/book/show/12913027

صدر للمؤلف:

١- **وطن من سراب** : ديوان شعري، صدر ورقيا ثم رقميا ٢٠٠٨م.

للتحميل:

http://www.goodreads.com/book/show/8566981

٢- **حلية الشعر وبهجة الشاعر** : كتاب في فن الشعر، صدر رقميا ٢٠١١م.

للتحميل:

http://www.goodreads.com/book/show/8566981

٣- **الوساوس!** : وهو الكتاب الذي بين أيديكم، ٢٠١٢م.

للنحميل:

http://www.goodreads.com/book/show/8566981

الوساوس !

محمد أبو الفتوح غنيم

وساوس النفس أمر لا نملك إيقافه ولا تحجيمه ولا نعلم حقيقة ما الذي يمكن أن تصل بنا إليه، وهذه الوساوس لابد لها من سبب أو نقطة تنطلق منها، والشعور هو عماد تلك الوساوس مهما تعددت أسبابها الذاتية أو الخارجية، وهي متعلقة بكل ما قد يولّد لدينا شعورا ما، فهي متعلقة بكل أمر من أمور حياتنا، لذا لا تتوقع أن تجدها منظمة أو متخصصة أو ذات طبيعة موحدة أو حتى ذات قضية مهمة –في نظرك–، ولا أن ترتبط بمكان أو زمان، ولا تتوقع منها نتيجة معينة واضحة سواء كانت نافعة أو ضارة، وهي تعبر أكثر ما تعبر عن حالة معينة ووضع مميز حتى ليصعب أن تتشابه وساوسك في موقفين متشابهين لأن هذه الوساوس يغذيها النضج العقلي والتجربة الحياتية فهي أشبه بالبصمة على المستوى الشخصي والعام.

الطبعة الأولى – يناير 2011